

منطق في بيل

شیر ذالیت عربیہ

اسامہ بن منقذ

عمارة الیمی

على بابا مبارک

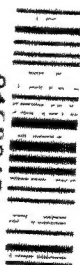


اینا

دون

زالی

0168818



Library Alexandria

320



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط  
KITAB AL-HILAL

No, 495 - MA - 1992

العدد ٤٩٥ رمضان - مارس ١٩٩٢

FAX 3625469 فاكس

### أسعار بيع العدد فئة ١٧٥ قرشنا

سوريا ١٠٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الأردن ١,٥ دينار ، الكويت ١ دينار ،  
السعودية ١٢ ريالاً ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ٢٠ درهما ، البحرين ١٠٠٠  
فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الإمارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١٠٠٠  
ريال ، فئة ١٧٥ : الضفة ، القدس ، ٢ دولار ، لندة ١,٥ هك ، الجمهورية اليمنية ٣٥

اهداءات ٢٠٠١

المهندس / محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

# سير ذاتية عربية

من ابن سينا حتى على باشا مبارك

بقلم

مصطفى نبيل



دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان :  
محمد أبو طالب

## المقدمة

تجذبني دائما قراءة السير الذاتية ، وتستهويني متابعة التجارب الإنسانية ، ألتبع صاحب السيرة .. أرصد التفاعل بينه وبين زمانه أراقبه وهو يبدو زاهدا فى الشهرة ، ولكنه ينجح فى التسلل واقتحام الصورة لكى يحتل فيها مكانا بارزا ، وقليل ما يبرأ من رغبة دفينة فى لفت الأنظار ، أتابعه وهو يؤكد أنه يخط مذكراته للتاريخ ، ثم تلمح الغاية التى يستهدفها من وراء حكايته ، أستشف ما يخفيه من أغراض ، مما يتيح دراسة ممتعة لكل من هذه الشخصيات داخل عوالمهم الخاصة والعامة .

فمنذ أن نقش الإنسان إسمه ورسمه على الحجر ، وهو يتوق إلى الخلود ، والإفلات من الفناء وعوادي الزمن ، ويأتى تسجيل السيرة الذاتية ، كإحدى المحاولات على هذا الدرب ، فحينما يكتب صاحب السيرة حكايته ، فهو فى أعماقه يسعى إلى تخليدها .

ويتناول هذا الكتاب قصة ثمان سير عربية ، كتبها ثمان شخصيات بينهم الكاتب والسياسى والفيلسوف والمؤرخ والمتصوف .

تمتد هذه السير زمنياً من القرن الرابع الهجرى حتى القرن الرابع عشر ، وتغطي جغرافياً رقعة عالم الإسلام الممتد من بخارى إلى الأندلس .

وإذا كان التراث العربى فى أحد جوانبه يحض على الزهد والإيثار ، ويؤكد أن الواحد للكل ، فإن دلالة ظهور علم خاص هو علم الرجال - أى تراجمهم وسيرهم - يثبت شمول هذا العلم واتساعه ما يحمله التراث من إيمان عميق بدور الفرد فى المجتمع .

فالسيرة مزج دقيق بين ما هو ذاتى وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصى والموضوعى ، وهى تقدم صورة حية نابضة بالحياة لأحداث وأفكار وقعت ، وهى فن أدبى رفيع أمد الدراسات التاريخية والاجتماعية بمادة لا تنضب من الصور الحية ، وتكشف الظلال والأضواء والألوان فى الأحداث والوقائع التى تتناولها .

والملاحظ أن معظم أصحاب السير ، لا يعتبرون ما كتبوه له قيمة فى ذاته ، وإنما يهدفون منه إلى الفائدة العامة والقيمة التاريخية ، وكثيراً ما يدفع الخجل والحياء كاتب السيرة إلى ستر عيوبه ، مما يجنح به إلى ترتيب الوقائع ، وإقامة معمار جديد لحمته الخيال .

وكل من يكتب تجربته بصدق ، يقدم عملاً فنياً خالصاً ممزجاً بشحنة من مشاعر وأحاسيس صاحبها ، والتى كثيراً

ما تأتى عفو خاطر ، وهذا وحده كفى أن يجعلها شيقة وجذابة ، وتصبح ضرباً من القصص الحى الجميل ، كما أنها فى إحدى صورها إعراف على الملأ .

وتتسم السير الذاتية بوحدة زمنية هى عمر صاحبها ، وتنقل الحياة الإنسانية بكل ما فيها من قبح وحسن ، ومن نقص وكمال ، وضعف وقوة ، ويتيح لنا بذلك التعرف على عالم صاحب السيرة وقيمه وثقافته ومشاعره نحو الناس والحياة .

حقاً ، لدينا كنوز ثمينة من السير الذاتية التى يضمها التراث العربى ، ولعلها متاحة فقط للخاصة ، إما لعدم توافرها أو لعدم التعود على قراءة الكتب القديمة ، وربما تحتاج إلى تعريف وتحقيق وتبسيط أحياناً ، فمتابعة هذه السير يفتح باباً واسعاً للإطلاع على بعض كنوز التراث العربى ، وهى وسيلة لتقديم التاريخ الحى ، ويضع يدنا على الكثير من التفاصيل التى يمكن أن تغيب عن عين المؤرخ .

ولما كنا فى عصر لم تعد الثقافة فيه وقفاً على الخاصة ، تبرز أهمية قراءتها قراءة ميسرة من جانب ، ونقدية من جانب آخر ، وتعرف من خلال صفحات محدودة العديد من الصور التاريخية الحية ، وتضع أيدنا على نقاط الضعف والقوة فى حياتنا الثقافية والوجدانية .

ويمكن للقارئ أن يلمس مسار هذا الفكر ، عند قراءة هذه السير جنباً إلى جنب ، مما يعزز الثقة بما بلغناه ، ويحيى

الأمل فيما يمكن أن نبخله ، ويلمح فى هذه السير إزدهار وتدهور الحضارة يرويها شاهد عيان .

كما كانت هذه السير النبراس الذى فتح الباب لكل من يريد تسجيل مذكراته أو اعترافاته أو يومياته ، سواء كانت أدبية أو سياسية .

وسبق وقدمت معظم هذه السير متتالية فى مجلة الهلال على مدى أكثر من خمس سنوات ، ويظهر خلالها التاريخ حلقات وراء حلقات ، وتتابع هذه السير يشبه سباق التتابع الذى يسلم خلاله الشعلة كل جيل للجيل الذى يليه .. ويقف قارئ هذه السير المتتابعة على الملاحظات التالية :

● بروز قضية حرية الكاتب ، والعلاقة بين العالم والسلطان ، التى ما تكاد تصفو حتى تتكرر ، وخاصة عندما يتداخل الدور الفكرى مع الدور السياسى ، الذى كثيراً ما يطمح إليه الكاتب ، وتأثير هذا الدور على هامش الحرية المتاحة له ، وقد دفع حياته ثمناً للحرية ، كل من لسان الدين الخطيب الذى قتل وأحرقت رفاتة ، ولذات السبب أعدم الشاعر عمارة اليمنى ، وتعرض الشيخ الرئيس ابن سينا إلى السجن نتيجة خلل العلاقة بين العالم والسلطان ، وكادت هذه المسألة أن تودى بحياة المفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون ،



● يصاحب الإزدهار الفكرى والحضارى قيام تفاعل فكرى مع الثقافات الأخرى ، ويصاحب الجمود الفكرى غياب التفاعل وموقف الإنغلاق وإدارة الظهر أو التعالى على الثقافات الأخرى ، كما إنتقلت العلاقة بين الشرق والغرب من التعاون إلى المواجهة ، والتى كثيراً ما تفجرت فى صور صراعات مسلحة .

● بقاء غبار معارك الماضى على الجبابة حتى اليوم ، ومازال قائما تأثير مذاهب الماضى على الحاضر ، ويظهر ذلك - مثلا - فى تأثير المذهب الاسماعيلى ، الذى يتوزع على كتابات ابن سينا والمؤيد لدين الله داعى الدعاة الفاطمى وأسامة بن منقذ ، كما كان هذا المذهب وراء إعدام الشاعر عمارة ، وهو المذهب الذى إبتدع الستر والكتمان وأتقن إقامة تنظيمات سرية حديدية .

ولا يسع من يتابع تاريخ هذا المذهب ، كما جاءت على لسان أصحاب السير - إلا أن يتساءل : هل إختفى تأثير هذا المذهب فى عصرنا الحاضر ، أم أنه يتناسخ فى صور وكيانات جديدة ؟ !

خاصة ونحن نعيش عصرا تعيش فيه طبقات التاريخ مثل طبقات الجيولوجيا جنبا إلى جنب ،

● عاش العالم الإسلامى وحدة ثقافية وفكرية كاملة، يتوزع أعلامه ومفكروه على الأقطار المختلفة ، ولكن تأثيرهم الفكرى يتخطى المسافات ، ويتخطى حد التقسيمات السياسية ، وكثيراً ما سافر المفكر آلاف الأميال ليلتقى بأحد الأعلام كى ويتحقق من قضية تشغله أو حقيقة علمية يحتاج إلى برهانها .

وكانت القاهرة طويلاً واسطة العقد لهذا النشاط تلعب فيه دوراً فكرياً رئيسياً .

وتنوعت السير مع تنوع أصحابها ، كما اختلفت دوافع كتابتها بين واحد وآخر . فالبعض مثل ابن سينا يهدف إلى عرض فلسفته، ويكشف عن طبيعته الفكرية ، وما يميزه فى تاريخ الفكر البشرى ، والمؤثرات التى خضع لها ، ومصادر تكوينه .

والبعض الآخر مثل المؤيد لدين الله داعى الدعاة كتب أغرب السير ، وهو يقص علينا مغامراته وجهوده السياسية لنشر الخلافة الفاطمية وهزيمة الخلافة العباسية ، ولم يعتن بحياته الشخصية ولم يكتب عنها ، وغرابة هذه السيرة أنها الجزء الظاهر من جبل الثلج المخفى تحت الماء ، وهو الجزء المستور فى طرق عمل دعاة الإسماعيلية ، وكيف كانوا يحيكون المؤامرات سرا فى سبيل دعوتهم .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، فنجد رحلة عقلية شامخة قصها علينا حجة الاسلام الإمام الغزالى ، ربما كانت من أعظم السير الذاتية التى خلفتها لنا العصور الوسطى ، والذي كان يهدف إلى الدفاع عن الدين الصحيح ، وكيف يسلك الإنسان طريق الحق ويهتدى إلى الله بعد ضلال .

ثم نلتقى بأسماء بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » ، ويظهر بين صفحاته الأمير العربى النبيل ، فى مذكرات بديعة ، تصور الفروسية العربية أيام الصليبيين ، كما تصور الحياة اليومية لأبناء الشرق ، وإن كانت لم تكتب فى تتابع منطقى ، وإنما فى شكل أخبار متفرقة ، ويتضمن مذكرات سياسية وعربية وإجتماعية عن الزمن الذى عاش فيه ، وهى مذكرات نفيسة سجل أسامة ما خبره بنفسه وشاهده بعينه .

وفى القرن السادس الهجرى كتب الشاعر عماره اليمنى مذكراته فى كتاب يسمى « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ، وهو عنوان خادع لا يتضمن أية نكت ولا يتناول الوزراء ، وإنما ترجمة ذاتية تلقى الضوء على مأساة الشاعر ، كتبه بأسلوب أدبى جميل ، وفيه التعريف بحياته وقصائده ، ومن سوء حظ شاعرنا ظهوره فى إحدى المراحل التاريخية الدقيقة ، أيام دولة فاطمية تنهار ودولة أخرى أيوبية تقوم ،

وفى هذه المراحل يصعب على الكاتب أو الشاعر الحفاظ على رأسه فى مكانها .

فعندما قتل الوزير المصرى طلائع بن رزيك ، نشبت منافسة حادة بين ضرغام وشاور ، وعندما يستجد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين صاحب الشام ، الذى يرسل إلى القاهرة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وسرعان ما تتطور الأمور فى ظل الحروب الصليبية واحتلال الإفرنج للإمارات العربية فى الشام ، ويصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمى ، ويعاقله الموت ، فيتولى الوزارة صلاح الدين الأيوبي ويسقط الدولة الفاطمية .

ويتهم عمارة اليمنى بالقيام بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية ، رغم أنه جاء إلى القاهرة سنى المذهب ، ويلقى حتفه ويعدم مع جماعة من أصحابه ، ولم تنفعه مدائحه لصلاح الدين ، وانقلب السحر على الساحر .

وفى القرن الثامن الهجرى ظهرت أكثر أصوات السير الذاتية عنوية وبلاغة على يد لسان الدين الخطيب ومعاصره عبد الرحمن بن خلدون ، وفى ترجمته الشخصية حديث مفصل عن جهودهما السياسية إلى جانب نشاطهما الفكرى .

ويتعرض الكاتب لسان الدين الخطيب إلى ما يشبه محاكم التفتيش ، ويلقى حتفه فى ظل التناحر والصراع السياسى الذى أدى إلى ضياع الأندلس .

أما ابن خلدون فقد كتب أهم سيرة ذاتية فى التراث العربى ، التى تنسم بالصدق والثراء بالوقائع ، وهى مذكرات تاريخية هامة ، تظهر عالم الإسلام وما أُلْم به ، وصور من حياة مصر المملوكية ، وهذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التى دونت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام .

وكان ابن خلدون رائدا فى كتابة فن السيرة الذاتية ، وتميزت قصة حياته بالصراحة حتى نجده يتناول بعض الأمور التى يحرص الناس عادة على اخفائها ، مثل ما دار فى لقائه بتيمورلنك ، الذى يقترب كثيرا من فن الاعترافات ، وأدت تجربته العملية إلى رؤية الواقع ومنه نفذ إلى حركة المجتمع وتاريخ العمران البشرى .

أما السير الذاتية التى كتبت بعد ذلك ، فمنها الترجمة الذاتية لكل من جلال الدين السيوطى والسخاوى ، وفى العصر العثمانى كتب الشعراى « لطائف المنن » ، ويظهر خلالها ضعف الثقافة العربية فى أواخر العصور الوسطى ، عندما اقتصر على اجترار الماضى بدلا من التأليف والابتكار ، وتظهر فى هذه المرحلة المختصرات ، واقتصار الثقافة على

اللغة والفقه والحديث ، وضعف العلوم مثل الرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها ، مما يعنى الولوج إلى عصر الجمود فالمسافة بين مصنفات ابن سينا ومصنفات جلال الدين السيوطى ، هى الفارق بين الإزدهار والجمود .

وتختتم هذه السيره بأهم من ترجموا لأنفسهم فى العصر الحديث على باشا مبارك ، الذى كتبها سنة ١٩٨٩ م ، أى قبل وفاته بأربع سنوات ، وهى سيرة كاملة تعبر عن جيل النهضة . ويحقق هذا الكتاب رسالته ، اذا دفع القارئ إلى قراءة هذه السير فى أصولها .

١

أبو علي بن سينا

سيرة ذاتية : ٣٧٠ هـ - ٤٢٨ هـ

حكيم الشرق : يعالج البدن

وينير العقل .

الشيخ الرئيس ، أبو على بن سينا ، أبرز  
حكماء الشرق ، إهتم به الكثير من الباحثين ،  
وكتبوا عن إنجازاته العديد من الكتب ، أبرزوا  
خلالها مكانته فى تاريخ الفكر والعلم .

ونقدم هنا سيرته الذاتية التى لا تتجاوز بضع  
صفحات ، ولكنها تقود إلى عالمه الرحيب ، يقدم  
خلالها نبض العصر الذى عاشه ، وينقل لغة  
وثقافة القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى  
الإسلام .



البداية للدخول إلى عالم ابن سينا ، هو التعرف على ابن سينا نفسه ، ملامحه الشخصية ، قدرته على التحصيل والتأليف ، وهل تنطبق صورته فى المخيلة العربية على صورته الواقعية .

كان ابن سينا عظيم الذكاء ، عظيم النشاط ، حاد الذاكرة ، ممثلاً بالحياة والجسارة العقلية ..

وهو لا يقل عن أفلاطون أو أرسطو فى العبقرية ، وفى التفكير وملكة الخيال ، اتسمت أعماله بالموسوعية ، وهى ليست مثل موسوعية القلقشندى أو النويرى ، الذى يصنف معارف غيره ، ولكنه موسوعى بتعدد إهتماماته وقدراته ، وتناوله فى كتاباته كافة المسائل ، فقد قرأ كثيراً وأنتج كثيراً ، وعاش حياة عريضة ، وعمل بالسياسة ، وتولى الوزارة ، ولم يتوقف أبداً عن الإنتاج الفكرى الغزير ، كتب فى الفلسفة والدين واللغة والفلك والموسيقى ، حتى أن له فى الموضوع الواحد أكثر من كتاب .

وهو شديد الاعتداد بنفسه وهو يروى سيرة حياته ، فالناس « عجبوا من علو تحصيله » ، وبالفعل كان أشهر أطباء عصره ، وأشهر الفلاسفة ، حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره ، واتقن الطب وهو دون العشرين .. فاقت قدرته على التحصيل قدرته على التكوين والتأليف .

وكان يردد لأصدقائه .. « إننى أؤثر عيشاً قصيراً رحباً  
على حياة طويلة ضيقة » ، وقد عاش حياة فكرية راقية ، وحياة  
واقعية يتلمس من تفاصيلها خبرته ، فهو محب للحياة ومولع  
بالنساء ومتذوق للموسيقى والشعر والغناء .

يقول عن الشراب .. « إنه محرم على الحمقى والمغفلين ،  
ومحلل للعقلاء .. » فإذا كانت صورة الفكر والعالم فى المخيلة  
العربية ، تتسم بالهيبة والوقار ، فصورة ابن سينا كما تقدمها  
حياته غير ذلك ، فقد روى تلميذه الجورجاني ، أنه يحب الحياة  
ومتعها ، يقبل عليها ويخوض غمارها ، ويستمتع بمباهجها ،  
وتوزعت حياته بين الفكر والسلطان والشهوة ، رغم ما بينهم من  
تعارض ، ولكنه لا يرى بأساً فى الجمع بينها ، فكان يعمل فى  
أمر الوزارة بالنهار ، ويجمع طلبته ويملى عليهم فى الليل ...  
« فإذا فرغنا حضر المغنون على إختلاف طبقاتهم ، وهىء  
مجلس الشراب بالآلة » ، وينصح طلبته « أما اللذات فيستعملها  
على إصلاح الطبيعة ، وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة ،  
أما المشروب فإنه يهجر شربه تلهياً بل تشفياً وتداوياً .. »

فهو القائل :

فى الشرب لا تقصد إلى الكثير      واقنع من النبيذ باليسير  
لا تدمن النبيذ كل يوم      ولا تكن تشرب بعد الصوم  
إياك أن تسهر طول الدهر      إن لم يكن فمرة فى الشهر

ويضيف تلميذه .. " كان قوى القوة كلها ، وكانت قوة  
المجاعة فى قواه الشهوانية أقوى وأغلب »

ورغم ذلك نجده يقول .. « الذات مراتب بحسب سلم القيم،  
فلذة الشهوات من طعام وشراب أدنى مرتبة من لذة الغلبة وحب  
الرياسة والسلطان ، ولذة الحياة العقلية أشرف وأتم من اللذات  
الشهوانية ، ثم إن لذة المعقول أدوم من لذة المحسوس ولذلك  
كانت اللذة الدائمة أرفع من اللذة المتغيرة ، والعلة التى تجعل  
الانسان لا يبلغ اللذة العقلية هو إتصاله بالبدن ، وانغماسه فى  
الرذائل ، ولا سبيل له إلى تحصيل اللذة الشرعية إلا بأن يخلع  
ربقة الشهوة والغضب عن عنقه ، فيطالع عندئذ لذة المعقولات  
وما فيها من بهاء .. »

وربما كان تفسير التعارض فى أقواله ، أنه مثل الفنان  
الذى يخوض تجاربه لكى تزيد معارفه ، فجولاته فى واقع  
الحياة ، لم تكن إلا مغامرات من أجل المعرفة .

### ● ابن سينا أحد علامات الفكر الإنسانى .

فالكندى والفارابى وابن سينا هم أساطين الفلسفة  
الإسلامية ، يحتاج كل منهم إلى مجلدات للإحاطة بما أضافه ،  
ولكن هذه محاولة سريعة للإلمام بما يمثله الشيخ الرئيس .  
إستوعب ابن سينا كل معارف عصره ، وأحاط بجوانب الحياة  
تجربة ، وفكراً ، وبذل جهداً كبيراً للتوفيق بين الإسلام

والفلسفات السابقة عليه ، بين كل من أفلاطون وأرسطو وأفلوطين من جانب ، وكل من الفارابى وبعض فرق الإسماعيلية وبعض الفلاسفة من قدماء الهند وفارس من جانب آخر .

وأهم ما جاء به ، دعوته إلى " العقلانية " ، فأخذ يفسر كافة الظواهر من خلال المنهج العلمى ، يقول " قد يبلغك عن العارفين أخبار يكاد تأتى بقلب العادة ، فتبادر إلى التكذيب ، وذلك مثل ما يقال إن عارفا إستسقى للناس فسقوا ، واستشفى لهم فشفوا .... ومثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تعجل ، فإن لأمثال هذه أسبابا فى أسرار الطبيعة .. »

والمدينة الفاضلة عنده ... « يحرم فيها الحاكم البطالة والتعطل .. ويقاوم فيها الحاكم الفساد ، ويمنع الميسر والزنا ، ويلتفت إلى أعداء المدينة « أى الطابور الخامس ..

لذلك كان طبيعيا مع بشائر نهضة الشرق فى أواخر القرن الماضى ، أن يجد السيد جمال الدين الافغانى فى كتب ابن سينا المعين للدراسات الفلسفية .

## ● الحكيم ..

ويجدر ملاحظة أنه فى التراث العربى تطلق صفة الحكيم على الطبيب وعلى الفيلسوف معاً ، فلكى تكون طبيبا لابد أن

تكون مفكرا ، وارتبط الطب منذ نشأته بالفلسفة ، ويكاد يكون معظم فلاسفة الشرق أطباء ، من الكندي وحتى ابن رشد ، وفاقت شهرة ابن سينا كطبيب شهرته كفيلسوف وبيدأ المفكر بالطب الذى يختص بالأبدان وأمراضها وعلاجها ، ثم ينتقل للبحث فى النفوس والعقول، فما معنى كثرة المعارف إذا عجزت عن علاج الأبدان والنفوس . ١٩

واتبع ابن سينا فى دراسة الطب منهجه فى السؤال والبرهان ، وكان كتاب « القانون فى الطب » ، هو الكتاب الذى استمر يدرس فى أوروبا مدة ستة قرون ، وأورد فيه ابن سينا قائمة تضم ٧٦٠ عقاراً، كان العطارون يبيعونها فى زمانه ، ولم يكن غريباً أن التقى وسط صحراء موريتانيا بطبيب تقليدى، ما زال يعتمد فى علاجه على ما جاء فى كتاب ابن سينا .

وعلاوة على العلاج بالأعشاب ، كان أول من إهتدى للعلاقة الوثيقة بين الانفعالات النفسية وأوجاع جسم الانسان ، وعرف الدواء لداء عضال ، أعراضه إرتعاش الشفتين وزوغان العينين، والحمى وارتفاع الحرارة ، وهبوط الوزن ، والسرحان حتى التوهان، أما المرض فهو فقدان الحبيب ، أما العلاج ، فهو الجمع بين المحب ومحبوته .

ولم يكن غريباً على ابن سينا وهو العارف بالموسيقى ، أن يتبين آثار النغم على المرضى جسدياً ونفسياً ، ومن

منجزاته التى يذكرها له تاريخ الطب ، دعوته للتخدير عن طريق الفم فى العمليات الجراحية ، ويقال أن المرقد ( البنج ) قد تم إستخراجه على أيامه من الشيلم ، كما وصف الأمراض التى تنتقل بالعدوى ، وأول من أوصى باختبار العقار الجديد عن طريق تجربته على الحيوان قبل الإنسان .  
وكما طالعت مصنفاته فاجأتك ابتكاراته ..

ومنها أنه قبل " بافلوف الروسى " اكتشف العلاقة بين كثرة النشاط والمهام التى يقوم بها الانسان وبين النسيان الذى يرجعه إلى ما يطلق عليه التداخل الرجعى والتداخل اللاحق وله ايضا فصل بيان تأثير التغذية والمناخ على الصحة ، وانتشار الأمراض بسبب القذارة والمياه الملوثة .

### ● ماذكره عن نفسه .

وابن سينا أحد الذين دونوا سيرة حياتهم ، وهى سيرة مشهورة أملاها على تلميذه أبو عبيدة الجوزجاني ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم أكمل التلميذ بقية قصة حياة أستاذه ، وسجلها كتاب أبو أصيبعة .

يقول القفطى فى أخبار الحكماء .. « سأل أحد التلاميذ ابن سينا أن يحكى له تاريخ حياته ، فأملى عليه ما سطره ، ويحتفظ المتحف البريطانى بهذه الترجمة ضمن مخطوطاته ،

ونشر المستشرق البريطاني مولر هذه الترجمة فى المطبعة  
الوهبية فى مصر عام ١٣٠٠ هـ .

ويطرح الدكتور فؤاد الأهوانى فى دراسته عن ابن سينا  
السؤال التالى . هل السيرة الذاتية كافية للتعرف على كل  
جوانب الشخصية ؟ .

ويجيب : « نحن نعلم أن ابن سينا من القلائل فى الإسلام  
الذين كتبوا سيرة حياتهم ..

وقد تصور الكثيرون أن هذا التدوين ألقى الضوء على  
حياته وصور لنا شخصيته ، على أن الشيخ لم يذكر إلا ما  
أراد أن يفصح عنه ، وقنع المؤرخون بهذه السيرة ، ولم يسع  
أحد إلى الحديث عنه إلا بما ذكره هو عن نفسه ، غير أنه لم  
يصور - فى رأيه - سوى المظهر الخارجى من شخصيته ،  
وبخاصة شخصيته العلمية والسياسية ، أما نوازع الباطنة ،  
وخواجه الخاصة ، وصفحات نفسه من آمال ومخاوف ،  
ورغباته فى الحياة ، وما يؤثره ويحبه ، فلم يذكر منه شيئاً .

ويرى د . الأهوانى أن هناك مصدراً آخر نجده فى شعره ،  
أبان خلاله الشيخ أنه لم يكن من الزهاد ، بل أقبل على الحياة  
وخاض غمارها ، واستمتع بما فيها من مباح .

## ● الشيخ الرئيس

ولكنه كان فى سيرته صادقاً ، ويكفى للتدليل على ذلك أنه ذكر أنه يسترد حيويته بالشراب ، ونعرف من خلال سيرته الذاتية ، أنه أبو على ابن سينا ولد فى إفشنة سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م ، وهى قرية قرب بخارى ، ومن أسرة فارسية ، وقد أبدى الفتى منذ نعومة أظفاره قدرة كبيرة على التحصيل ، حفظ القرآن وهو فى سن العاشرة ، فمواهبه ظاهرة حتى أصبح حجة فى الفلك والطب والفلسفة والرياضة ، ولما يبلغ العشرين ، وتلمذ على يدى اسماعيل الزاهد ، ثم إشتغل بالمنطق والهندسة وتلمذ على يدى عبدالله الناتلى ، ثم أقبل على دراسة الطب وقرأ ما ترجم عن اليونان والهند ، وأخذ فى معالجة المرضى وهو ابن ستة عشر ربيعاً .

ولقب فى عصره بالشيخ الرئيس وهى تسمية ليست عفواً ، فالشيخ لقب علمى ، والرئيس لقب سياسى ، بعد أن جمع بين الاشتغال بالعلم والسياسة معاً ، ويلاحظ على العصر الذى بزغ فيه ، أن التفاعل كان قائماً بين كل ثقافات العالم ، وكانت الدولة العباسية هى أقوى دول العالم ، تبسط نفوذها على منطقة شاسعة تصل إلى ما وراء النهر وأفغانستان ، وبلاد فارس وجزيرة العرب والعراق والشام ومصر ، وكانت الحضارة الاسلامية وريثة كل حضارات العالم القديم .



ورغم أن هذه الدولة بدأت تتفكك فإن التفاعل الثقافى داخلها كان متواصلاً فقامت الدولة الفاطمية فى مصر ، والدولة الصفاوية فى سجستان ، والدولة السامانية فى بخارى ( ٢٦١ هـ - ٣٨٩ م ) ، وبقيت المنافسات بينها فى الفكر والعلم والأدب .

وتبين سيرته الذاتية ، أن اللغة العربية كانت هى لغة الفكر والثقافة فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، يؤثر مثلاً ما يقوله المذهب الاسماعيلى فى مصر عن النفس والعقل فى بقية الدول ، ومن بينها بخارى مسقط رأس ابن سينا ، كما تظهر السيرة الدور الكبير الذى يقوم به " المعلم " ، ومدى إنتشار المكتبات والحرص عليها ، ولم تكن ثقافة العصر ، تقتصر على الفقه والتفسير والحديث - كما يتصور البعض - ، بل شملت الفلسفة والفلك والرياضة والموسيقى .



وحان الوقت لنتابع معا نص الجزء الأول من سيرته الذاتية :

« كان أبى رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير نوح بن منصور السامانى ، واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميش من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى ويقربها أفشنة ، تزوج أبى

منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم إنتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، واكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى محمد أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدأوا يدعوننى أيضا إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ أبى يوجهنى إلى رجل يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء الى بخارى أبو عبدالله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين .

وقد ألفت طرق المطالبة ووجوب الاعتراض على المجيب ، على الوجه الذى جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب « إيسا غوجى » على الناتلى ، ولما ذكر لى حد الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ؟ .. أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل التعجب ، وحذر والدى بشغلى بغير العلم ، وكان أى مسألة يقولها أتصورها خيرا منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما

دقائقه فلم يكن عنده فيها خبرة ، ثم أخذت أقرأ الكتب على  
نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب  
" إقليدس " ، قرأت من أوله خمسة أشكال أو سنة عليه ، ثم  
توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ، ثم إنتقلت إلى  
المجسطى - كتاب بطليموس ، وهو فى علم الهيئة والنجوم  
وحركات الكواكب والافلاك - ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت  
إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى : تول قراعتها وحلها  
بنفسك ، ثم إعرضها علىّ لأبين لك صوابها من خطئها ، وما  
كاد الرجل يقوم بالكتاب ، أخذت أحل ذلك الكتاب ، فكم من  
شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم  
فارقنى الناتلى ، واشتغلت بتحصيل الكتب من النصوص  
والشروح من الطبيعى والالهى . »

### ● الفارابى والغزالى .

ثم يروى الشيخ الرئيس كيف تكونت معارفه ، فخلال نحو  
عامين قرأ المنطق والفلسفة - كما رأينا - بفروعها المختلفة ،  
بعد أن إستغنى عن المعلم وأخذ يعلم نفسه ، وإذا إستعصى  
عليه شىء فى يقظته وجد حله فى منامه ، كما كان من عاداته  
أنه إذا إستشككت عليه مسألة أن يتردد إلى الجامع ويصلى ،  
حتى ينفتح له ما يصعب عليه ، ويتيسر له حلها .

واحترف ابن سينا مهنة الطب ، فكان لكل كاتب أو مفكر حرفة يعيش منها ، ومنحه الطب المكانة الإجتماعية ، ومن خلالها عمل بالسياسة ، ووصل إلى ضالته من الكتب النادرة .

وعندما تعمق فى الفلسفة وانتقل إلى الإلهيات أى ما وراء الطبيعة ، قاده الفارابى المعلم الثانى ، ووجد لديه حل كل المسائل المستعصية ، وله قصة مع كل من الفارابى والامام الغزالى ، فقد وجد فى مؤلفات الفارابى ما يعينه .

أما الامام الغزالى فقد خالفه - رغم انه ولد بعد وفاة ابن سينا سنة ٤٥٠ هـ - إنه يرفض الفلسفة ، فالفلاسفة - كما يقول - يعترفون بمبدأ السببية ، أما الغزالى فينكره ، وسجل ذلك فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، فالاعتراف بمبدأ السببية يستبعد القدرة الإلهية ، فليس هناك مؤثر سوى الله سبحانه ، وبناء عليه ليست النار هى سبب الإحتراق ، ولكنها السبب الظاهر فقط ، أما العلة الحقيقية فتكمن فى الناموس الإلهى .

أما ابن سينا فيرى أن لكل موجود علة فى وجوده ، عدا الله لأنه واجب الوجود بذاته ، ولأنه مبدأ كل معلول ، واتهم الغزالى الشيخ الرئيس بالكفر لمسائل ثلاث قوله بقدم العالم ، وعدم المعاد الجثمانى ، وعلم الله بالجزئيات (الجبر والاختيار) .

ولنتابع معا هذا الجزء من سيرته الذاتية كما يرويها ..

« وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ ، ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا إشتغلت في النهار بغيره ، . وكلما كنت أتحير في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي المغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلى قوتي ..

## ● الحل في المنام

ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيرا من المسائل إتضح لي وجوها في المنام .

ومازلت كذلك حتى إستحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الإنسانى ، وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أرد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعى والرياضى .

ثم عدلت إلى الإلهى وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علىّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا ، ومع ذلك لا أفهمه ولا أفهم المقصود منه ، وأيسست ( يئست ) من نفسى، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين ، ويبد دلال مجلد ينادى عليه ، فعرضه علىّ ، فرددته رد متبرم ، معتقدا أن لا فائدة فى هذا العلم .

فقال لى : إشتري منى هذا ، فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتى ، وأسرعت فى قراءته ، فأنفتحت علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان محفوظا على ظهر قلب ، وخرجت بذلك وتصدقت فى ثانى يوم بشىء كثير على الفقراء شكرأ لله تعالى .

## ● العالم والسلطان .

وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور (توفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) إتفق له مرض تلج (تردد) الأطباء فيه ، وكان إسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته ، وترسمت بخدمته ، أقبلته يوما لإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، وفى كل بيت صناديق كتب منصدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع إسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضا من بعد .

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه ، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لا يتجدد لى بعده شىء »

## ● ابن سينا فى محبته ا

ونأتى الى الجزء الثالث من سيرته الذاتية ، عندما كانت حياة « الشيخ الرئيس » عاصفة مضطربة تخللتها أسفار

عديدة ، ولا يكف عن كتابة مؤلفاته ، يكتب أحيانا خلال السفر ، وأحيانا خلال محبسه ، وأحيانا أثناء الفراغ من عمله الوزارى ، وكثيرا ما كان يختفى من الجميع .

وتتسم العلاقة عادة بين العالم والسلطان بالدقة والحساسية ، يجذبه أبهة السلطان والنفوذ الذى يحيطه ، ويبيعه الرغبة فى التحرر من هذا النفوذ ، والتفرغ لعلمه ، وعندما يحصل على النفوذ يزهد فيه لكى ينصرف الى المتعة العقلية ، ثم يعود ويخشى سطوة السلطان وجبروته .

فبعد أن مات والده وهو فى الثانية والعشرين ، أخذ بقية حياته ينتقل من بلاط أمير الى آخر ، وكان مسرح نشاطه السياسى المنطقة المحيطة ببحر قزوين ، فتنقل بين جرجان وخراسان وداغستان . وتقلد الوزارة مرتين فى همدان ، واتصل بالأمير نوح ابن منصور ، وشمس الدولة البويهى .

وفى ظل صراع السلطة نفى مرة وسجن أخرى عندما إتهمه شمس الدولة بمكاتبه علاء الدولة ، وحرص عليه فسجن فى قلعة فردجان ، ونظم قصيدته .

دخولى باليقين كما تراه .. وكل الشك فى أمر الخروج

ولنتابع الجزء الثالث من سيرته كما يرويها .

وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى ، فسألنى أن أصنف له كتابا جامعاً فى هذا العلم الفلسفى ،



فصنفت له « المجموع » ، أتيت فيه على سائر العلوم عن الرياضة ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري ، وكان في جوارى أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي فقيه النفس متوحد في الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألني شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصل في قريب من عشرين مجلداً ، وصنفت له في الأخلاق كتاباً سميته كتاب « البر والإثم » ، وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده ، إذ لم يعد أحد ينسخ منهما .

ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان ، ودعنتي الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج ، وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء .

وأثبتوا لى مشاهدة داره بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ومنها إلى إبيورد ومنها إلى طوس ومنها إلى شقان ومنها إلى سمنان ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدي الأمير قابوسي ، فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوسي وحبسه في بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ، ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان ، وأنشأت في حالي قصيدة فيها بيت القائل :

## كما عظمت فليس مصر واسعى لما غلى ثمنى عدمت المشتري ● المشهد الأخير .

يصف تلميذه المشهد الأخير بقوله " .. صار أمره فى السنة التى حارب فيها الأمير فى الفراش على باب الكرخ إلى أن أخذه قولنج - قرحة المعدة - ولحرصه على رفقة الأمير إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها ، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى كرات ، فتقرح بعض أمعائه ، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت .. وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لا تقى بدفع المرضى ، فأهل مداواة نفسه ... "

ولعل الخطر الذى يخشاه « الشيخ الرئيس » هو الوشاية والمكيدة، فحرص رغم مرضه حضور مجلس الأمير .

وعندما جاء أجله .. « إغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه ، واعتق مماليكه ، وجعل يختم القرآن كل ثلاثة أيام ختمة ، ثم مات » .

وبالسخرية القدر ، توفى أشهر الأطباء وأعظمهم نتيجة خطأ فى العلاج ، فقد مات نتيجة إسرافه على نفسه ، واكثاره فى علاج قرحة المعدة المصاب بها ، فقد أسرف حتى تقرحت أمعائه!

وكانت وفاته فى همدان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، ولم يتجاوز عمره الثمانية والخمسين .

## ٢

المؤيد لدين الله داعي الدعاة

الشيرازي

( ٣٩٠ هـ - ٤٧٠ هـ )

هذه سيرة المؤيد لدين الله داعى الدعاة الشيرازى ، وA ،  
سيرة رجل دين وسياسة ، كتبها فى القرن الخامس الهجرى ،  
نقل خلالها حياة أحد دعاة الفاطميين .

وتتناول السيرة مرحلة تاريخية تزخر بالاثارة والغموض .

وأهمية القراءة الجديدة لهذه السيرة ، أنه فى عصرنا  
الراهن تعيش الطبقات التاريخية الجيولوجية جنبا إلى جنب ،  
تناسخت المذاهب وظهرت فى صور جديدة وتحول التشيع فى  
مصر إلى التصوف ، ووقفت أفكار القرون الوسطى إلى جانب  
أفكار القرن العشرين .

وليست هذه السيرة مجرد تاريخ ، إنها ترد بالوقائع على  
أولئك الذين يدعون إلى صب الحاضر والمستقبل فى قوالب  
الماضى ظنا منهم أن هذه القوالب هى الدين ، بينما الإسهام  
ضرورى على طريق المستقبل يكون بالمعرفة النقدية والوعى  
وحقيقة تيارات الماضى .

أول ما يدعو اليه المذهب الاسماعيلى ، الذى كان سائدا  
فى مصر فى العصر الفاطمى ، هو الستر والكتمان فكيف  
يكتب داعى الدعاة سيرته الذاتية ، والى اى مدى يفصح عن  
أسرار الدعوة وتنظيم الدعاة<sup>١٩</sup> .

إن «إبراهيم» يرد المؤيد في سياقها الداربي تفسح عن  
الكثير من الحقائق والأسرار . لذلك استمرت في طي الكتان  
كجزء من سفر عوامهم وأسرار مذهبهم وما زالت هذه السيرة  
أشد الكذب «نرا عند الدولة وريثة المذهب الفاطمي ، فلم يقصد  
المؤيد من كتابتها العام أو التاريخ ، بقدر تحقيق غاية محددة ،  
وليس للبعد الشخصي سوى مجال ضيق ، فلم تتناول طفولته  
أو أفراد عائلته أو أصدقائه أو شيوخه ، ولم تكن نقطة البداية  
في كتابة سيرته التعبير عن إدراكه لأبعاد الحياة من حوله ، بل  
شرع فيها سنة ٤٢٩ هـ ، لكي يشرح العلاقة بينه وبين  
السلطان كاليجار البويهى في إمارة شيراز، ومن يومها وهو  
يسجل الأحداث التي تعرض له ، وينصل إلى نهايتها بعد  
نجاحه في اقنحام مقر الخلافة العباسية وقد دعا للخليفة  
الفاطمي على منابر مساجد بغداد .

وتتعرض هذه السيرة إلى الحياة السياسية في مصر ، وما  
أحاطها من مؤامرات .

وحقق وقدم هذه السيرة الدكتور محمد كامل حسين وتمكن  
من الحصول عليها رغم حرص أبناء المذهب الاسماعيلي على  
اخفاء كتبهم ، وتعتبر من بدايات السير الذاتية في التراث  
العربي .

ظل الغموض والإثارة يحيطان بالمذهب وبالفرق الكثيرة التي خرجت من عباة ، والتي يكاد بعضها أن يكون مثل الأحاجي والألغاز التي تبحث عن من يكشفها ، مما جذب اهتمام عدد من الدارسين ، ومن هؤلاء إيفانوف وبرتولد الروسيان ، وبرنارد لويس البريطاني ، وفلهوزن الألماني وغيرهم ..

نشأ صاحب السيرة هبة الله ابن موسى بن داود فى شيراز حوالى سنة ٣٩٠ هـ ، وكان والده أحد دعاة المذهب الفاطمى ولم يتناول فى سيرته تفاصيل طفولته وصباه ووضع العائلى والشخصى ، كما جرت عليه السير الذاتية فيما بعد ومجمل حياته أنه تدرج فى مراتب الدعوة حتى أصبح حجة فارس ، وصل إلى أعلى مراتب الدعوة ، فأصبح داعى الدعوة وحجة الأمام سنة ٤٥٠ هـ ، ونفاه الوزير عبد الله بن يحيى من مصر ، فرحل الى القدس ثم عاد الى مصر مرة أخرى ، واستضافه فى بيته ملك بن مالك قاضى الصليبيين فى اليمن مدة خمس سنوات ، تتلمذ خلالها القاضى على يديه وأخذ أسرار الدعوة منه ، وأصبح المؤيد أستاذًا للدعوة فى اليمن .

ووصول المؤيد إلى تلك المرتبة التى لم يصل اليها فى تاريخ الاسماعيلية سوى عدد قليل من الدعاة ، يزيد من قيمة

سيرته ، ويتمتع صاحب السيرة بثقافة واسعة ، ووصفه أبو العلاء المعري الذي كثيراً ما ناظره ، « لو ناظر أسطارليس لجاز ان يفحمه ، أو افلاطون لنبذ حججه خلفه » ، ويصف المؤيد نفسه . " أنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ، ولا يماثلنى أحد فيها " . وهذا الاعتداد الشديد بالنفس شرط لقوة وتأثير سيرته ، التى تأتى كتجربة إنسانية حية ، وتشخيص وتصوير صادق لعصره ، أفكاره وقيمه وأبطاله ، تتميز بوحدة عمر صاحبها ، وتصيغ حكاية لها بداية ونهاية .

وهى سيرة من نوع خاص فهى لا تزدهم بالأحداث والمغامرات، ولكنها سيرة عقلية تزدهم بالعمل والحركة ، وتزخر بالمناظرات الفقهية بين صاحبها وخصومه ، يدحض حججهم ، ويكتب الرسائل ردأ عليهم ، ويؤدى المهام الصعبة ، ويتنقل بين شيراز والشام والعراق ومصر والقدس ،

## ● قضاها القرن الخامس

ومسألة بدء شهر رمضان ، هى المسألة التى أدت لمحنته فى شيراز ، تلك المحنة التى دفعته لكتابة سيرته ، عندما وقعت أول أزمة بينه وبين السلطان سنة ١٠٣٧ م - ٤٢٩ هـ ، ويسجلها بقوله . " زعم البعض أن شهر رمضان يتم تارة وينقص

أخرى ، وأن الصيام بنى على رؤية الهلال ، ويقول الله سبحانه  
 " أياما معدودات " ، والأيام المعدودة هي التي لاتزال معدودة ،  
 فلو كان يحمل أن يكون شهر رمضان تارة ثلاثين يوما وتارة  
 تسعة وعشرين يوما ، لما ذكر أياما معدودات قطعاً .

والعجيب أن هذه المسألة مازالت مطروحة ومحل خلاف بعد  
 مايزيد على ألف عام ، وكانت أيضا من أهم أسباب النهضة  
 العلمية فى مصر فى علوم الرياضيات والفلك ، وعرف المصريون  
 الاهتمام بدراسة النجوم وحركاتها ، وأقاموا لها المراصد .

ويقول " إن بعض الناس خاضوا فى حديث الفورة التي  
 جرت فى شيراز .... واتهمت برفض السنة ونشر البدعة ، وأن  
 الكاتب يستعد مع جماعته للهجوم على دار السلطان بالقلع  
 والحرق والقتل " .

ويؤكد المؤيد فى موضع آخر أنه .. " من عمل بالباطن  
 والظاهر معا فهو منا ، ومن عمل بأحدها دون الآخر فالكلب  
 خير منه وليس منا " .

ويروى أنه رغم خروجه هاربا من شيراز ، فإنه نجح فى  
 التقرب من السلطان ، وأقنعه بدعوته بعد عدة مناظرات ،  
 وأصبح السلطان تلميذا له فى أمور الدين .. " .. فدعاة



الاسماعيلية أقدر الناس حجة وألسنهم فصاحة ، وأكثرهم  
 موهبة فى المناظرة ، ويعود ذلك للنظام الدقيق المتبع فى  
 إعدادهم وتدريبهم ... وجرت المناظرة مع السلطان مكاتبة لا  
 مشافهة ، لأنى تخرجت من المشافهة صونا للعرض مما يخلط  
 بالمشافهة فى المناظرة من سوء الأدب ، وقصدت أن يكون ما  
 يدور بيننا من الكلام يتجسم بالكتابة لتبقى فائدته لتأمله ،  
 فسكن جأش السلطان واطمأن قلبه .. وقال : إنى أسلمت  
 نفسى ودينى إليك .. واستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة  
 جمعة .. "

ولا تندوم الدنيا على حال ، وسرعان ما تتغير الأحوال ،  
 وينقلب السلطان على المؤيد تحت ضغط الأهالى ومبعوث  
 الخليفة العباسى ويبتعد عنه السلطان ويمتنعه من الاتصال  
 بالناس .. " ونجح سعى مبعوث الخليفة باقتلاعى من تلك  
 الديار وقصدنى بالتشرد منها .. وكنت إلى حين انصرافه لا  
 أعد نفسى فى غمار الأحياء خوفا من تسليمى إليه ، وما بعد  
 ذهابه ، ما كنت آمن المكائد التى لم يزل الخصوم عاكفين  
 عليها بحضرة السلطان ، فكنت إذا أصبحت لأرجو أن  
 أمسى ، وإذا أمسيت أرجو أن أصبح ، لما كنت بصدد ، من  
 قصد العوام وبغتاتهم وكبساتهم فى الليالى والأوقات الغامضة ،

لا سيما وقد ثبت فى نفوسهم أن السلطان خصمى ، وإنما تنكف عوادم العامة عن أمثالى وكان يبلغنى كل يوم من البلاغات فيما يقع من التظاهر على ، والإغرار بى ما ترجف الأرض من بعضه " .

### ● القرامطة والدروز ١

وتبين كلماته عن الصراع الذى دار على أرض شيراز ، بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وهو صراع أعنف من الصراع الذى يثور بين الاسلام وخصومه ، رغم أنه مجرد صراع سياسى يلبس لباسا فقهيا أحيانا ومذهبيا أحيانا أخرى !

وحان الوقت قبل المضى مع المؤيد فى سيرته أن نلم بلمحات عن المذهب الاسماعيلى ، الذى يدعو إليه المؤيد ، ونتعرف على ابعاد هذا الصراع الذى شهده عالم الاسلام .

بعد جهود ومحاولات كثيرة نجح المذهب الاسماعيلى فى إقامة دولة فى المغرب وأخرى فى مصر وثالثة فى اليمن ، بعد ملاحقة الأمويين ومن بعدهم العباسيون لفكرة التشيع لأهل بيت الرسول ﷺ ، وينسب الاسماعيليون إلى اسماعيل بن جعفر ، ويعرفون بالسبعية تمييزا لهم عن الإثنى عشرية ،

وقامت حركتهم على الاستتار وعلى تنظيم سرى محكم وكفاء ، فبعد أن أجبر محمد بن اسماعيل على ترك مسقط رأسه فى المدينة ، والهجرة إلى خوزستان بأواسط آسيا ، ومنها إلى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ، ويسجل مؤرخو الاسماعيلية أن أسرة محمد بن اسماعيل قدمت إلى الشام ، واستقرت فى مدينة السلمية القريبة من حمص فى القرن الثالث الهجرى ، وقد وصلوها متكررين خوفا من بطش أعدائهم ، واستمرت غامضة الفترة ما بين سنة ١٤٧ هـ عند وفاة جعفر الصادق حتى سنة ٢٩٦ هـ السنة التى ظهر فيها عبيد الله المهدي فى المغرب بسبب ستر الأئمة ، وقد أعطى هذا الستر فرصة لعدد من المؤرخين للتشكيك فى نسب أئمة الاسماعيلية ...

ويسجل تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر أن نسبة الأئمة كانت دائما محل بحث ، فعندما دخل قادة وعلماء مصر على المعز لدين الله ، سألوه عن نسبه ، فجرد حسامه وقال : هذا نسبى ، ونثر عليهم قطع الذهب ، وقال هذا حسبى .

وصاحب قيام الدولة الفاطمية عصر الخفاء ، بنزعة استكشاف الغيب واحياء عصر الخوارق ، ودراسة الفلسفة ، وقيام الفرق الدينية السرية ، مع التعلق بالمجهول وتهكم المصريين على إدعاء معرفة الغيب ، ويروى أن العزيز بالله

صعد المنبر ذات يوم ، فرأى رقعة كتب عليها :

بالظلم والجور قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم الغيب

نقل لنا كاتب البطاقة

ويلاحظ هنا نجاح فقهاء المذهب الاسماعيلي فى تقديم تصور متكامل ، لكسب تأييد المستويات المختلفة من الأهالى ، فقدموا لأهل الورع والتقوى دعوة تقوم على تبجيل القرآن الكريم وأحكام الشريعة الإسلامية ، وقدموا لأهل الفكر والتأمل تفسيراً فلسفياً للكون ، استمدوه من مصادر القدماء ، وقدموا لأصحاب الأرواح الرقيقة والحس المرهف أفكاراً عاطفية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام آل البيت ، وقدموا للمظلومين والمقهورين المتطلعين إلى العدل ، حركة معارضة سرية جيدة التنظيم ، تهدف إلى هدم القائم وإقامة مجتمع جديد يقوده الإمام ويملا الدنيا عدلاً بعد الجور والظلم ..

وشهد عالم الاسلام فى هذه المرحلة التاريخية ظاهرتين خطيرتين :

● **ظاهرة قيام تنظيمات سرية تقوم على الستر والكتمان**  
وانتشارها فى أرجاء عالم الاسلام ، وإذا كان للستر والكتمان هدف وهو الخشية على الإمام ، فإن السرية والكتمان لهما آلية خاصة ، ويمكن اختراق التنظيم السرى من إحدى حلقاته ، وتوجيهه بعيدا عن هدفه الأسمى ، وهو ما وقع بالفعل .

● **ظاهرة الانقسامات والعنف ، خرج من الكتمان**  
والسرية مذاهب مثيرة ، ويكفى أن نعرف أنه عند لحظة انتصار المعز لدين الله ، خرج عليه القرامطة ، فى شرق شبه الجزيرة العربية ، وانقلبوا عليه ، ثم عادوا مرة أخرى بقوة السلاح إلى الولاء الفاطمى ، وفى ذروة عصر الخفاء فى أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، حاول بعض الدعاة نشر أفكارهم التى تضافى على الحاكم قدسية خاصة ، وثار عليهم المصريون وفتكوا ببعضهم ، وفر البعض الآخر واستطاعوا أن يقيموا طائفة جديدة هى الدروز القائمة حتى اليوم فى كل من سوريا وفلسطين ولبنان ، وزعم بعض الغلاة منهم أن الحاكم قد رفع إلى السماء !

ونعود إلى المؤيد لدين الله وهو يلجأ إلى مصر متخفيا سنة ١٠٤٥ م - ٤٣٨ هـ ، ويروى أيام شدته قائلا : « رأيت أننى إذا بقيت مكرانى ، لم آمن ما يتم على بغيتهم من حيلة

ومكيدة... وعملت على تنكير الزى والهيئة ، والدخول فى أطمار  
 رثة ، وابتعت غلامين مجهولين ، وسلكت فى بعض المجاهل من  
 الطرق ، أكثرى من مرحلة الى مرحلة حمارا أركبه ، أو جملا أو  
 ثورا على حسب ما يتفق ، وأتحمل مشقة المشى وخوض  
 الأودية والوحول ، والصبر على مضض البرد والنزول على  
 المواضع القذرة ما يكون الموت عن دائه شافيا ... وكنت أحل  
 فى صوب الطريق بأقوام الريافة وأهل السواد ، فأسمعهم  
 يذكروننى من القبيح بما أعلم أنهم لو شعروا بى لكانوا  
 يتطهرون بدمى ويصلون ... وبعد مقاسات الأحوال التى رأيتها  
 عيانا .. بلغت بشق النفس الباب الطاهر - باب الامام مترجحا  
 بين أمل ويأس ، أما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود  
 شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار تبرقع بالسحاب - ويقصد  
 أن الحكم لم يكن فى يد إمامه المستنصر إنما فى يد أمة  
 ورجالها « ، ويعكس حديثه مع التسترى حالته النفسية  
 وخيبة أمله .. يقول : « أعلم ، أنه ما مجتنى ديارى من فمها  
 الا تكشفها بخدمة هذه الدولة العلوية ، وتخوفا من الجهة  
 العباسية ، وتسلا من فتنة كاد شرها يهلكنى . فما الداعى  
 الى قصدى هذا غير داعى الايمان ، وما المقصود الا صاحب  
 القصر الذى هو امام الزمان ، فان كان المقصود - الخليفة -  
 يعلم أننى أنا الرجل الذى فيه أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ،  
 وهو يأنف من لقائه بلحظه ، ومن خطابه بما يشرح الصدر  
 بلفضله » ..

وتكشف كلماته أنه لم يستقبل كما يتوقع ، ووجد الامام ومن حوله عنه لاهين .

### ● المؤيد وناصر خسرو

ونلاحظ أنه وصف لقاءه الأول بكل تبجيل واحترام مع قصر الامام ، فقال : « أدخلوني من القاهرة المعزية الى قصر الخلافة .. ولحت الثريا ترابا تحت قدمي ، اذ ترشفت ذاك التراب ، واجلسوني هنيئة لأفريق من غشية الهيبة التي ملأت جوانحي لما غشيت الحسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى » ..

وهو هنا يسيطر على جوانحه الموقف المذهبي ، ولا يقدم لنا وصفا لقاهرة تلك الأيام ، والتي كانت جليبة شامخة ، والتي يصفها ناصر خسرو في تاريخ قريب سنة ١٠٤٩م - ٤٤١ هـ ، ويذكر عن ذات القصر : « كان القصر وسط القاهرة ، بينه وبين الأبنية المحيطة قضاء ، يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسان ، وخمسمائة حارس من الرجالة ، أسواره عالية ، لا يستطيع أحد رؤية ما بداخله ، وقيل أن عدد من يقيمون بالقصر ٣٠ ألفا من بينهم ١٢ ألف خادم ، وللقصر عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا ليصل الى قصره الآخر ..

ويوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك  
السلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنائير فى الشهر ، وفيها  
من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره ، وهى جميعها ملك  
للسلطان ، وفى القاهرة والفسطاط عشرون ألف ه نزل يملكها  
ويؤجرها السلطان ... وللقاهرة خمسة أبواب ، هى باب النصر  
وباب زويلة وباب الفتوح وباب القنطرة وباب الخليج ، والمبويت  
مبنية بناء نظيفا محكما ، ومفصولة عن بعضها بالحدائق التى  
ترويهما الآبار ، ويؤخذ ماء الشرب من النيل يحمل السقاء ون  
على جمال يبلغ عددها ٥٢ ألفا ، ويحمل الرجال القرب حيث  
سيتعذر على الجمال دخولها ، وفى الفسطاط بيوت من أربعة  
عشر طابقا ، وبعضها من سبعة طوابق ، وثمة رجل أنشأ  
حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار ...

ويصف فى موضع آخر موكب المستنصر بقوله : « أنه  
شباب لطيف المحيا حليق الذقن يرتدى فى بساطة قفطانا  
أبيض وعمامة ، وعلى رأسه مظلة مرصعة بالجواهر الثمينة ،  
واللائى يحملها كبير الموظفين ، ويتحدث عما تشاهده فى محصر  
من ثروات وأموال ، قائلا « أنه يخشى ألا يصدق أحد من بلاد  
العجم إذا حاول وصفها » ..

وكان لابد أن تبهث القاهرة الرهبة فى نفس المؤيد وهو  
يزورها لأول مرة .



## ● الظلمة اليهودية

ولم يجذبه وصف القاهرة وحياة أهلها ، بل جذبه وهو الداعى الفاطمى الفارق الكبير بين الدولة الحلم التى يحلم بها المضطهدون والمقهورون وبين الواقع من حوله الذى يتحكم فيه الهوى والطموح الشخصى .

ويلحظ موقف المصريين من الحكام ... « وعاداتهم فى الاستخفاف بملوكهم معروفة ، أما الوزراء فهم أغنام عندهم للزئع معلوفة .. » ويتكشف له حقيقة ما يدور ، فأما المستنصر كانت جارية مملوكة لأبى سعد التستري التاجر اليهودى ، قبل أن تنتقل للخليفة الظاهر ، وعندما أصبح أبنا خليفة أستعانت بسيدها القديم ، واتخذت منه وزيرا لعله يساعدها على السيطرة على الدولة مع صغر سن وليدها ، كما تولى الوزارة يوسف الفلاحى ( ١٠٤٤ م - ٤٣٦ هـ ) ، وهو ايضا يهودى اسلم ، يقول عنه المؤيد بعد أول لقاء : « رأيت شيئا عليه من الواسار سعة ، ومن الانسانية سمة ، فأدنى وقرب وأكرم ورحب .. » .

وسجل انا التاريخ تولية ثلاثة وزراء من اليهود فى العصر الفاطمى ، أشهرهم يعقوب بن كلسى ، وثانيهم صدقة بن يوسف الفلاحى ، الذى كان من يهود حلب ، أما الثالث فهو الحسن بن أبى سعد التستري ، الذى لم يستمر فى الوزارة أكثر من عشرة أيام ..

وقد عبر الرأى العام فى مصر عن هذه الظاهرة على لسان  
الشاعر ابن ميسرة بقوله :

يهود هذا الزمان قد بلغوا  
غاية آمالهم وقد ملكوا  
العز فيهم والمال عندهموا  
ومنهم المستشار والملك  
يا أهل مصر أنى نصحت لكم  
تهودوا قد تهود الفلك

فكيف عبر المؤيد لدين الله عن هذه الأحداث ، وهو  
الفاطمى المتحمس .. ١٩

يروى فى سيرته الذاتية : « قيل أن هنا يهوديا يكنى أبا  
سعد التستري ، كان تاجرا ومولى أم المستنصر ، أصبح هو  
المتصرف فى شئون البلاد ، وأصبح الوزير الفلاحى يأتهم  
بأمره ، وهو لأمر المملكة كلها الأساس والمبنى ، توجهت اليه ،  
فأريت منه اهتزازا لرؤيتى ، وخرجت من عنده بثياب ودنانير  
خرجت لى من خزانة السلطان ... وعندما توجهت الى الموسوم  
بالقضاء والدعوة ونحن بالبعد ، والواسطة بيننا وبين مجلس  
الامامة ، فأريته رجلا يصول بلسان نسبه فى الصناعة التى

وسم بها دون لسان سببه ، فارغا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته ، وموتور منى بما أوحى اليه بعض شياطين الانس من أننى ربما زاحمته فى مكانته ، وتذكرت قوله تعالى : « انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم » - يقصد أم المستنصر - وكان اليهودى - التستري - يلقانى بنشر وجهه ، ويخاطبنى بكل خير لسانه ، ويعدنى أن يصطنعنى لسانه ، ويجعلنى خدمه ومصاحبه ومكانته ، ويمنعنى ان أتعقب باب أحد من المصطنعة والاكابر ، فيكون ذلك وكسا على فيما يريدنى له ، ويشوقنى اليه من المنزلة الجلية ، فلما استفاض من الذكر من جهته ، وملأ الاسماع من لفظه ، قامت الحسدة من الشياطين المردة ، فدخلوا فى عقل اليهودى ، وقالوا : كيف تطوع لك نفسك ان تأخذ بهذا الرجل العجمى الدخيل الى المقام الذى أنت مخصوص به ومرتب له ، وما يؤمنك أنك اذا ادخلته أخرجك ، وإذا قدمته أخرك ، وهو ابسط منك لسانا ، واقوى جنانا ، وهو يدلى بعزة الاسلام ، والتخصيص بالدعوة والخدمة ، وفيك من العلامات كلها خمول اليهودية ، ولم يزل الحديث يتوارد على سمعه حتى تشربه قلبه « ..

ويصف متاعبه ومعاناته مع بلاط خليفته وامامه . يقول : ولا خير فى المقام عند باب من يكون محجورا عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه .

« وعندما سمع اليهودى القول ، وأننى كشفت من الأمور مستورا، هاج كما يهيج الجمل نفورا ، ثم لم يزل دأبى ودأبه المماحكة والمعاركة والاحراق به فى مجالسه ومواكبه ، .. حتى اتفق من قتله.. وقالوا ان الفلاحى دس من قتله .. وان بعض الجهات الجلية التى كان اليهودى مرتسما بخدمتها فى الظاهر، وان كان مستوليا على المملكة كلها فى الباطن .. فلما تجلت الظلمة اليهودية، مدت باع طلبى للملاقة السلطان .. » .

## ● لقاء الإمام

واخيرا دخل مجلس الخلافة فى آخر يوم من شعبان ٤٢٩ هـ

وبعد أن رأى عجز الإمام ، ولس سيطرة مؤامرات القصور التى كاد يذهب ضحيتها ، وشاهد الفارق بين الحلم والواقع ، وسجل كل ذلك بشجاعة المؤرخ لا تحيز صاحب المذهب ، وعند اللقاء يعود ويسيطر عليه الموقف المذهبى ، وينسى عند وصفه لهذا اللقاء كل متاعبه ، يقول : « لم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة ، وغلبتنى العبرة ، واجتهدت عند وقوعى الى الأرض ساجدا (!) لولى السجود ومستحقه .. ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت على أثوابى العقود ، رأيت بنانا يشير إلى بالقيام ، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول .. وهو يقول .. دعوه حتى يهدأ

ويستأنس ، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على  
عينى وصدرى وودعت وخرجت » ..

ويعود المؤيد ولعب دورا نشطا فى الدعوة ، ويصبح طرفا  
هاما فى صراع جديد بين الخلافتين العباسية والفاطمية ،  
ويقوم بمهمة دقيقة فى شمال الشام والعراق ، مكلفا بالتأثير  
على الأمراء الذين استقلوا باماراتهم فى ظل ضعف الخلافة  
العباسية فى بغداد والتهديد السلجوقى ، وبعد دخول طغرل بك  
التركماني مدينة الرى سنة ٤٤٦ هـ ، وتأرجح الأمراء بين  
القاهرة وبغداد ، ويسافر المؤيد الى الشام وسلاحه ليس  
السيف بل القلم ، وأداته الكلمات والعطايا ، ونجحت رسائله فى  
إقامة تحالف ضد التركمان فى سنجار بين أرسلان التركى  
المعروف باسم البساسيرى وبنى مزيد فى الحلة ، وبنى مرداس  
فى حلب ، وقریش بن بدران صاحب الموصل ، ونجح  
البساسيرى فى دخول بغداد يوم الأحد الثامن من ذى القعدة  
سنة ١٠٥٨ م - ٤٥٠ هـ . وهو يحمل الرايات البيض المصرية  
وعلى رأسها أعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم  
أمير المؤمنين وخطب له فى مساجد بغداد ، وضرب السكة  
الذهب والفضة باسمه ، وأرسل البساسيرى الى الخليفة  
المستنصر فى القاهرة بثياب الخليفة العباسى وعمامته ،  
فارتجت مصر ، وأقيمت الاحتفالات ، وخطب باسم الخليفة  
الفاطمى فى الموصل والبصرة وواسط » ..

وتكشف هذه الأحداث التاريخية ، أن الصراع الداخلى بين أطراف الأمة الواحدة ، ظاهرة قديمة ، وإذا كان مفهوما بعض جوانب الصراع المذهبى ، فغير المقبول ، أن يكون الصراع الأساسى بين أطراف يتعرض كل منهم لتهديد عدو واحد ، وكما رأينا أن الصراع اشتد بين الرؤساء وليس ضد التهديد الخارجى وربما تحقق الحركات السرية بعض النجاح فى صفوف المعارضة ، ولكنها تواجه الفشل عندما تصل الى الحكم .

فسرعان ما تحول الانتصار الذى أنجزه المؤيد الى سراب ، وعاد السلاجقة للاستيلاء على هذه المناطق .

### ● الشدة المستنصرية

ولكى يوضع الصراع الذى شارك فيه المؤيد فى سياقه التاريخى ، نتعرف على أبعاده ، ونعود الى الحكم الفاطمى فى القاهرة .

حكم المستنصر بالله فترة تزيد عن ستين عاما ، ووصلت الدولة الفاطمية فى عصره الى أعلى ذراها ، ثم تهاوت الى الانحلال السريع ، وقدم لنا المؤيد فى سيرته الظروف والحيثيات ، ومؤشرات هذا الانحلال ، بما ألقى عليه الضوء مما أطلق عليه « الظلمة اليهودية » وعرض مؤامرات البلاط وعجز السلطان ، وكان من نتائج ذلك ما عرف بالشدة

المستنصرية الكبرى ١٠٦٣ م - ٤٥٧ هـ ، ومن جانب آخر أدت الى مزيد من تشرذم المذهب الاسماعيلى ، عندما تضافر القحط مع اختلال الأمن ، وتقدم رجال السيف وتراجع رجال القلم ..

مما أدى فى النهاية الى انقسامات عميقة تناولت الأسس الفكرية للمذهب الاسماعيلى ، فعقب وفاة المستنصر ، اختار الأفضل بن بدر الجمالى الابن الأصغر للخليفة المستعلى خليفة وإماما ، بدلا من نزار الابن الأكبر الأحق بالامامة على ما يقتضيه المذهب الاسماعيلى ، وانشق المذهب الى قسمين ، واستمرت جيوب القسمين قائمة حتى اليوم .

وكان من أول نتائج هذا الانشقاق ، خروج حسن الصباح من القاهرة ، والذي كان يرى أحقية نزار بالامامة والذي قتل ، ويؤسس فرقة الحشاشين فى فارس ، ويقيم الحصون ، ويبنى قلعة الموت ، ويقوم مذهبه على الولاء والطاعة المطلقة ، وامتزجت طبيعة المنطقة الجبلية النائية بأفكار المذهب الاسماعيلى ، وبالأفكار والعقائد السائدة بين الفلاحين وسكان الجبال ، وتحول تنظيمه الى أداة فعالة فى يد المعارضة السرية ، وكانوا أول من حقق أهدافهم السياسية عن طريق اشاعة الفوضى وتقويض أركان الكيانات السياسية القائمة ، واعتمدوا على الاغتيال السياسى كأداة أولى للوصول الى أهدافهم ، واقترن لفظ « الحشاشين » فى اللغات الأوربية

بمعنى الاغتيال وقامت حركة سرية لها قسمها وشعائرها ،  
وكانوا الارهابيين الأول الذين طوعوا الارهاب لتحقيق أهدافهم  
السياسية .

ومازالت بقاياهم قائمة حتى اليوم فى سوريا وفى الهند ،  
ويمثلهم اتباع أغاخان ، وقامت بينهم سلسلة من الأئمة وصلت  
فى القرن التاسع عشر الى أسرة أغاخان ، ووصل هذا الأمر  
الى المحاكم البريطانية فى الهند عام ١٨٦٦ ، والتى كان عليها  
أن تبحث الحجج وتدرس الأنساب لتحكم فى أحقية أغاخان  
فى زعامة الطائفة .

### ● البهرة ومسجد الحاكم

ويمثل أتباع البهرة ما تبقى من القائلين بامامة المستعلى ،  
وكان المذهب قد انتقل الى اليمن على أيدي ملك بن مالك  
قاضى الصليحيين ، والذي سبق وذكرنا أنه تتلمذ على المؤيد  
لدين الله مدة خمس سنوات ، فبعد قضاء صلاح الدين الأيوبي  
على الخلافة الفاطمية فى مصر ، غادر فلول الاسماعيليين  
البلاد ورحلوا الى اليمن ثم انتقل المذهب عن طريق التجارة  
بين اليمن والهند ، وقام المذهب فى ولاية جوجرات جنوب  
بومباى ، وأطلق عليهم لفظ «البهرة» وهى كلمة هندية قديمة تعنى  
التاجر ، وانتقل رأس الدعوة من اليمن الى الهند فى القرن  
العاشر الهجرى . ومن نسله حتى اليوم أتباع هذا المذهب ،



ويعرفون بملابسهم المميزة ولحاهم الطويلة ، ونسائهم المنقبات ،  
وظهر البهرة فى مصر من جديد بعد مايزيد على ثمانمائة عام  
من خروجهم منها ، عندما قاموا باهداء المقصورة القضية  
لضريح سيدنا الحسين ، وتجديد جامع الحاكم بأمر الله الذى  
يعتبر لديهم من أكثر الأماكن قداسة ، وهم لا يؤدون فريضة  
الصلاة سوى فى « الجامع خانة » ، ويرفضون إقامة الصلاة  
فى غير مساجدهم ، وأقام أصحاب هذا المذهب فى مدينة  
سورات فى الهند « الجامعة السينية ، لتعليم اللغة العربية  
والمذهب الاسماعيلى » .

ولدى دعاة البهرة شطر كبير من مؤلفات الاسماعيلية التى  
وضعت فى مصر الفاطمية ، بينما فقد عدد كبير منها من  
مصر ، وكلما ظهر لهم كتاب جديد ، أثار من جديد قضية الملل  
والنحل فى الاسلام .

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع المذهب الاسماعيلى  
وانشغاقاته ، وما تبقى منه حتى اليوم ، والذى كانت سيرة  
المؤيد لدين الله بمثابة الجزء الظاهر من جبل الجليد المختفى  
تحت الماء ، نعود لنصاحب المؤيد فى عودته إلى القاهرة  
ونتعرف على ماجرى له بعد انتصاره الكبير فى العراق  
والشام .

وندعه يتم قصته .. يقول .. « سرت الى مدينة صور ، فلما  
حصلت موضعا يسمى البواقيير ، لقينى صاحب بسجل يؤكد

على فى النكوص على عقبى الى حلب ، فملكنى التحير  
والدهش ، ووجدت الرجوع ممتنعا ، والوفادة على الباب  
( الخليفة ) بعد تحريمها خطة شديدة ، ورجحت بين الأمرين ،  
فرايت أن الاتمام خير من الرجوع ، وأن الذى اقتضى انشاء  
ذلك السجل ، هو تلفيق من بعض المفسدين ، أو ظن ظان أننى  
إذا دخلت تعرضت بوزارة ، أو زاحمت أحدا فى رتبته ، وقلت  
ياسبحان الله بما يستحق من كان هدفا لسيوف التركمانية  
وسهامهم . وأقام لديهم سنة جرداء يعاين فيها كل ساعة  
حقفه.. أن يكون جزاؤه المنع من العودة الى الباب ، فرايت أن  
أنكب عن الطريق الجادة الى البرية والمجاهل فما شعروا بى  
حتى أطلعت رأسى بالجب - جب عميزة - عند باب القاهرة .  
ودخلت ، دخول المهزوم لا الهازم ، والمكسور لا الكاسر » .

ثم يتولى منصب داعى الدعاة ، وداعى الدعاة من مفردات  
الدولة الفاطمية منصب يلى قاضى القضاة ، كان يتزيا بزي  
خاص ، وينوب عن القاضى ، ويتناول راتباً قيمته مائة دينار  
مثل قاضى القضاة .

وكان عالما بجميع مذاهب أهل البيت ، يأخذ العهد على  
الأتباع ويحضر إليه فقهاء فى دار الحكم .

ويحفظ لنا تاريخ الادب العربى رسائل متبادلة بين أبى  
العلاء المعرى وداعى الدعاة الشيرازى وهى رسائل تدور بين

المتقف الرسمي وبين المتقف الحر الطليق ، يسعى فيها المؤيد إلى أن يصطف كبار المفكرين وراء المعتقدات الرئيسية للدولة .

وكان لهذه الرسائل دوى كبير ، وقد أعيد نشرها فى مجلة المقتطف فى يونيو ١٩٣٠ . والتي يقول فى إحداها أبو العلاء :

علم الإمامة -ولا أقول بظنه - .. أن الدعاة بسعيها تتكسب وقصده حين قال :

ضاع دين الداعى فرحت ترو

م الدين عن التسييس والشماس

ويكتب داعى الدعاة المفكر الرسمي للدولة ، ساخرا ومتعاليا .. « أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتينك مستشفيا فاشفنى ..

ويرد المعرى .. « أنه لو مثل فى حضرة « داعى الدعاة » لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب ، لأن أعضائه متخاذلة وقد عجز عن الصلاة قائما وانما يصلى قاعداً وإنى لأعجز إن اضطجعت عن القعود ، فربما إستعنت بانسان فإذا هم باعانتى وبسط يديه لينهضنى اضطربت عظامى لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن فعرتهن منها الأوقات المتمادية ، وإنما عنيت كان عليهن من لحم ..

ويضيف هازنا .. « ومن استرشد بمثل العبد الضعيف  
العاجز فإنما مثله مثل من طلب في القتادة ثمر النخل ، وإنما  
حمل سائله على ذلك حسن الظن الذي هو دليل على كرم  
الطبع.. وهو بكتابه إلى تواضع ، ومن أنا حتى يكتب مثله  
لمثلي، مثله في ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى »  
ويتجنب المؤيد القضايا الفكرية ويحاوره حول سر إمتناعه  
عن أكل اللحم ، وعن كثرة إستعمال السجع في أدبه ..



وتطوى صفحة حياة المؤيد سنة ٤٧٠ هـ ، ويلقى أكبر صور  
التكريم من الخليفة ، ويدفن في دار العلم بالقاهرة ، ويصلى  
عليه إمامه المستنصر بالله .

# ٣

اعترافات الإمام الغزالي

ورحلته من الشك إلى الإيمان ..

( ٤٥٠ هـ - ٥٠٢ هـ )

هذه سيرة ذاتية من نوع خاص ..  
تحكى قصة مفكر كبير يبحث عن اليقين ،  
ويرفض التقليد ، يغوص فى كل معارف عصره،  
ويدرس كل ما خطه الفلاسفة والفقهاء ويتوه فى  
بحر بلا شطآن ، وتضطرب به الأمواج يبحث  
عن الضياء وسط ظلمة الشك الحالكة ، ويقدم  
تجربته العقلية وتطوره الفكرى ، بعد أن خاض  
العديد من المخاطر الفكرية والروحية .

ولد أبو حامد الغزالي منتصف القرن الخامس الهجري سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م في مدينة طوس ثاني مدن خراسان ، والتي بها قبر الإمام الرضا وقبر هارون الرشيد ، ودمر المدينة جحافل المغول سنة ٦١٧ هـ ، وبقيت قبور الغزالي والإمام والخليفة ، ونشأ حولها مدينة مشهد المعاصرة .

ولم يعرف عن والدته سوى انها توفيت وهو ما زال طفلا ، وروى ابن النجار أن والد أبي حامد كان يغزل الصوف ويبيعه في دكانه ، وأوصى بولديه محمد وأحمد إلى صديق له صوفي صالح ، فعلمهما الخط ، وفنى ما خلف لهما أبوهما وتعذر عليهما القوت ، فقال : أرى لكما أن تلجأ إلى المدرسة ، وكأنكما طالبيان للفقهاء ، عسى يحصل لكما قوت ..

وبدأت بذلك رحلة تعليمه ، فدرس الفقه وعلم الكلام ، ويذكر السبكي في « طبقات الشافعية » حكاية زادته التصاقا بالعلم وحرصا على تحصيله يقول : « سافر الغزالي إلى جرجان إلى الامام أبي نصر الاسماعيلي » ، ويروي الغزالي « قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا ، فقتبتهم فالتفت إلى مقدمهم وقال .. أرجع ويحك وإلا هلكت .. فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقاتي ، فما هي بشيء تنفعون به ، فقال : وما هي تعليقاتك .. ؟ فقلت .. كتب في تلك المخلاة هجرت اسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك ساخرا وقال .. كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد

أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ وسلم الى  
المخللة .

ويعلق الغزالي على القصة قائلاً « هذا منطق أنطقه الله  
ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس ، أقبلت على  
الاشتغال ثلاث سنين حفظت جميع ما علقتة ، وصرت بحيث لو  
قطع علىّ لم أتجد من علمى » ..

ويقول ترجمته فى كتاب نفحات الأندلس لعبد الرحمن  
الجاحص المتوفى سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م « اجتمع بنظام  
الحكم وحصل له قبول تام ، فمن كان فى صحبة نظام الملك  
من العلماء والفضلاء باحثوه وناظروه ، فغلب عليهم ، ففوضوا  
اليه تدريس النظامية ببغداد .

ويضيف الصفدى .. « قصد مصر ، واقام بالاسكندرية  
مدة ، ويقال إنه عزم فيها على ركوب البحر للاجتماع بالأمير  
يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ، فبلغه نعيه وعاد الى  
طوس » ..

ويذكر عنه ابن كثير فى البداية والنهاية « .. برع الغزالي  
فى علوم كثيرة ، وله مصنوعات منتشرة فى فنون متعددة ، وكان  
من أذكىء العالم فى كل ما يتكلم به ، وساد فى شببيته حتى  
أنه درس بالنظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وله من العمر أربع  
وثلاثون سنة .»



أما أبو الفرج عبد الرحمن الجوزى فى كتابه المنتظم ،  
 فيقول .. « ترك التدريس والرياسة ولبس الخام الغليظ ولازم  
 الصوم ، وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ » ..

ووصلت قيمته أن اتفق العلماء - فى الاثر - على أن مجدد  
 المائة الأولى للاسلام هو عمر بن عبد العزيز والمائة الثانية  
 الإمام الشافعى والثالثة الامام الاشعرى والرابعة الباقلانى ،  
 والخامسة حجة الاسلام الغزالى ..

أما رحلة الإمام أبى حامد الغزالى وسيرته الذاتية فى  
 كتابه « المنقذ من الضلال » وفى رحلته تلك ، احتمل ما لا  
 يحتمله سواه ، وأظهر مكنون ذاته ، واطر ما تخفى نفسه ،  
 وما يختلج فى قلبه ، وهو العالم لكل فن ، والسابح فى كل  
 بحر ، وولج غير هياب ولا وجل بحار الفلاسفة والمتكلمين  
 والمتصوفة .

وفى مغامرته ترك التدريس والجاه والصيت ، وفر بنفسه من  
 بغداد عاصمة الخلافة ، واعتزل بالشام ، واختفى بصخرة بيت  
 المقدس ، وأغلق على نفسه منارة دمشق ، وحج الى الأراضى  
 المقدسة وأخرج كتابه الهام « إحياء علوم الدين » ..

وتوصل بعد هذه الرحلة الى أن الاسلام دين المنطق السليم  
 والعقل الحر ، لا دين الرؤيا والأحلام والأوهام .

يأتى صوته صافيا من أعماق الماضى بعد تسعة وعشرين عاما على الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، فيخاطب هذا العصر الذى غاب فيه اليقين .

ويمكن القول إن اهم ما قدمه الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » ما يشبه نظرية فى المعرفة ، يصل خلالها الى أنه من الممكن بفضل المنهج الصحيح رفع الخلاف بين الخلق إذا اتبعوا المنهج الذى يرسم فى معرفة الحق ، ونقده لمناهج المعرفة القائمة فى عصره ، ويؤكد أنه « فى مقدمة المقاصد لا يقف على فساد علم من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلم الناس » ..

وسلك طريقا جديدا للوصول الى الحقيقة فليس بالعقل وحده يصل الإنسان الى اليقين ، فيمكن أن تلعب الأهواء والأغراض بالعقل وليس بالحواس وحدها ..

والوصول الى الحقيقة يحتاج الى مجاهدة النفس والتجرد عن الهوى والمصالح الخاصة ، ويؤمن أن الذوق يلعب دورا فى القدرة على الخروج من الحيرة والضياغ ، وهو يعنى الحدس بتعبير هذه الأيام ، أى الخبرة التى تعطى القدرة على الحكم .

وخبرة الحياة وخصوصيتها تلقيان الضوء على رؤية الغزالى ، عندما يلاحظ المتأمل أنه عند المسائل الحيوية والاختيارات الحاسمة فى حياة الفرد ، لا يكتفى بالعقل ولا بالحساب البارد حتى يأخذ قراره ويستقر رأيه ، وانما يتم الاختيار بما هو

أبعد من العقل ، فإذا كان بالعقل وحده يتم اختيار أى وسائل  
المواصلات أنسب ، أو أفضل الطرق لتنظيم عمله ، إلا أنه  
يحتاج إلى ما هو أبعد ، وهو يحدد مهنته أو شريكه حياته ،  
أو هل يقيم فى مسقط رأسه أو يهاجر الى أرض جديدة .

وجاء العصر الحديث بمذهب « المتأملين » الذين يتبعون  
التأمل كطريق للوصول الى الراحة والايمان تأكيدا لما نادى به  
الامام الغزالى .

### ● أزمة حادة :

يبدأ الغزالى قصته « بأن بعض اخوانه سألوه أن يشرح  
كيف ارتفع عن حضيض التقليد الى قمم الاستبصار  
وتحصيل العلم اليقينى ، فاختلف الخلق فى الأديان والملل ثم  
اختلف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر  
عميق ، غرق فيه الاكثرون وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق  
يزعم أنه الناجى . وأنه منذ شبابه إلى أن اتاف على  
الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض أغواره  
واعماقه خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحنور .. »

ويستعرض ازمته الحادة التى كادت تعصف به بقوله «  
اقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت ان طريقتهم لا تتم  
الا بعلم وعمل ، أما العلم فكان أيسر من العمل ، أما العمل  
فاخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه إلا بالنوق والحال

وتبدل الصفات فهم يقينا أرياب احوال ورأس ذلك كله قطع  
علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى  
دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .. ولا يتم ذلك  
إلا باعرافها عن الجاه والمال ، والهروب من الشواغل  
والعلائق ..

فها هو بعد أن وصل الى الصيت و الجاه ، واصبح أستاذًا  
مرموقا فى المدرسة النظامية ببغداد .. وجد نفسه قد اقبل  
على تدريس علوم غير مهمة ، وغير نافعة ، وغير خالصة لوجه  
الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ..  
وجميع ما أنت فيه رياء وتخيل ، ويراوده الشيطان هذه حالة  
عارضة ، وحذار من مطاوعتها ، فهى سريعة الزوال ، وإن  
أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى  
عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى فى منازعة  
الخصوم .

وعاش طويلا هذه الحيرة حتى « .. جاوز الأمر حد  
الاختيار الى الاضطرار فعقل لسانى ، حتى اعتقل فى  
التدريس فكنت اجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا ، تطيبيا  
للقلوب المختلفة الى ، ولكن لسانى كان لا ينطق بكلمة .. لا  
أستطيع البتة ، وزاد الأمر أن أورثت هذه العقلة فى اللسان  
حزنا فى القلب ، بطل معه قوة الهضم ، ورغبة الطعام  
والشراب .. فكان لا تتساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ،

فضعفت القوى ، وقطع الاطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا ..  
هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه إلا  
بالعلاج ، إلا بان يتروح السر عن الهم الملم .

ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا  
قدر الكفاف ، وقوت الأطلاق ..

وإذا كان الغزالى قد ترك التدريس فى اكبر معاهد العلم  
فى عصره ، وتخلّى عمّا حققه من نجاح ، وخرج تاركاً الأهل ،  
والولد والصحاب ، فقد فعل ذلك تحت الحاح عاطفة لا تقاوم  
من شوق الروح الى اليقين والسكينة والاطمئنان الى حياة  
وأعمال خالصة من شوائب الحياة وأهوائها .

ويروى الغزالى لابی بكر محمد بن العربى مراده من رحلته  
بقوله « وإن القلب اذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس وتجرد  
للمعقول انكشفت له الحقائق .. فالقلب جوهر صقيل مستعد  
لتجلى المعلومات فيه عند مقابلتها عرياً عن الحجب كالمرآة فى  
رؤية المحسوسات عند زوال الحجب » ..

وبدأت رحلته الى الايمان والتي دامت عشر سنوات أو  
تزيد .

## ● مع الغزالى فى رحلته ..

ولنسّر مع الغزالى فى رحلته خطوة خطوة ..

يتهم البعض الغزالي ، انه قلل من شأن العقل ، وهذا ليس صحيحا ، فالعقل عنده هو « ميزان الله فى أرضه ، ولكن .. »  
 يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق ، فما من احد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة ، وأضعفهم عقلا هو افرحهم بكمال عقله ..

وإذا كان العقل هو اداة المعرفة ، فإن الجواس تشوش عليه ، مما دعاه الى نقد المعرفة الحسية عندما يشوش الوهم على وظيفة العقل ، وعلى طالب الحقيقة أن يحارب الوهم ، حتى يستطيع تصور الأمور المجردة والحقائق غير المحسوسة .

فالمعرفة أما أن تكون بالمحسوسات واما أن تكون بالعقليات، والمعرفة بالمحسوسات لا أمان لها ، لأنك .. « تنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم تدل الادلة انه اكبر من الأرض ، بمقدار .. وايضا المعرفة بالعقل وحده لا يقين فيها ولا ثقة ، لانه يمكن ان تطرأ على الانسان حالة .. تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم ، وكثيرا ما يكذب العقل الاحساس ، وينكر الاحساس العقل .

فإذا كان العقل قادرا على معرفة كثير من الأمور ، مثل الاستدلال على وجود الصانع ، وعلى حدوث العالم ، فإن هناك أمورا ليس للعقل سبيل الى القطع بها ، مثل البعث والثواب والعقاب ..

ومع تسليم الغزالي بقيمة العقل ، إلا أنه يميز بين ميدان العقل وميدان الدين ، فيقسم العلم فى كتابه الاحياء .. الى علوم شرعية تستفاد من الانبياء ، وعلوم غير شرعية ترشد اليها العقول والتجارب كالرياضة والطب ..

ويؤكد على الفصل بين الذاتى والموضوعى « لا يعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف اهله » ، ويشترط الاستقلال .. « لا خلاص إلا فى الاستقلال ، فالعقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء ، عن جميع المعضلات » ..

### ● الغزالي وديكارت ..

ويختار الغزالي « الشك » كدرب الى اليقين ، وهى فكرة قديمة عرفت عند السفسطائيين ، ما أكثر الشبه بين تجربة الفيلسوف الفرنسى ديكارت « ١٥٩٦ - ١٦٥٠ » وتجربة الغزالي .. ونقرأ ما خطه الغزالي .. « الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

ويعرف فى كتابه المنقذ من الضلال معيار العلم ، وفى تعريفه بالعلم اليقينى وبيانه لشروط اليقين يسبق ديكارت .

فقد لاحظ ديكارت - فى كتابه نقد العقل المحض - انه تلقى مجموعة من المسلمات الخاطئة وشك فى معارفه جميعا ، حسية كانت أم عقلية ، فانتظر حتى بلغ النضج ، وحرر نفسه

من الأهواء والافكار والمشاكل ، وعكف على هدم أفكاره القديمة ، ووجد شيئا لا يقبل الشك ، وهو حقيقة كونه يشك ، ووجد فى البداية أن معارفه تأتى عن طريق الحواس واكتشف أن الحواس يمكن أن تكون خادعة ، واستخدم ذات الحجج التى استخدمها الغزالي بشأن الأحلام واليقظة ، يذكر « انى أرى فى أحلامى ما اعتقد انه الحقيقة ، وعند يقظتى أجدها وهما » ويصل إلى ضرورة الافتراض التخمينى لكى يصل الى العلم اليقينى .. « ومادمت أقوم بهذا الافتراض فأنا موجود ، وكائن ، ومادمت موجودا فأنا أفكر فى اشياء لا تعرف سوى بالفكر وحده - لا لأنها ترى وتلمس ولكن لأنها تفهم وتدرك ، إذن فجميع الاشياء تدرك بالفكر لا بالحواس » وقدم ديكارت نظرية الشك كنظرية متماسكة الحلقات ..

أما الإمام الغزالي فميزان الحكم لديه ، هو الدين ، فالله قد اعطانا عقولا ، وأودع فى نفوسنا تفكيراً منطقياً ، وطريقة للفهم وأسلوباً للبحث والاستقصاء .

ويذكر فى المنقذ من الضلال .. « النفس الانسانية تكون فى اول امرها خالية من كل معرفة ، ثم يدرك الانسان بوسائل الادراك وكل إدراك يطلعه على نوع من الموجودات وأول ما يحصل للطفل ادراك الحواس ، حتى إذا نما الطفل ظهر فيه التمييز ، الذى يساعده على إدراك أشياء أعلى من



المحسوسات ، ثم يترقى الى دور العقل ، فيدرك الاحكام العقلية ..

وراء العقل طور أعمق تتفتح فيه معرفة الغيب ، وما سيكون فى المستقبل ، وأمور أخرى ، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لرفضها ، فكذلك بعض العقلاء، أنكروا النبوة ، وذلك عين الجهل ، إذا لا مستند لهم ألا أنه طور لم يبلغوه ويظنون أنه غير موجود ..

وبرهانه على صحة ما نطق عليه « الحدس » وجود معارف عند الانسان لا يمكن أن تتم إلا بهذا النوع من الادراك ، مثل الطب والفلك .. فمن يبحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى .. ولا سبيل اليها إلا بالتجربة .. فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة .. وفى الامكان وجود طريق لادراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل ..

وتتتابع أمثلته .

لو قيل لأحد .. « هل يجوز ان يكون فى الدنيا شىء » ، هو بمقدار حبة يوضع فى بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ،

لقال: هذا محال وهو من الخرافات ، وهذه حالة النار ينكرها من لم ير النار اذا سمعها .

ويصف درب الايمان بقوله « وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق فيتقنها بالتجربة ، والتسامع ، أن أكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان ، ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان . . والتحقيق بالبرهان علم، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان »

### ● تهافت الفلاسفة

رأينا ان اعتكاف الغزالي كان دافعه ذلك الصراع بين ايمانه وشكه ، وهى القصة الواقعية لمعركة عقل بحثا عن الحقيقة ، وقبل وصوله الى نظريته فى المعرفة درس ما تناولته المدارس الفكرية المختلفة فى عصره ، وخاض بحار الفلسفة بحياد كامل ، وكتب مؤلفه مقاصد الفلاسفة ، شرح خلاله الأفكار الفلسفية القائمة ، وبعدها نقدها فى كتاب تهافت الفلاسفة ، وسلم بقيمة الرياضة التى توصلوا اليها ورفض استمرارها ، الى الكون والحياة .

وتجد فى القرآن الكريم العقائد موضوع بحث وسؤال وبيان وبرهان ، وألف العديد من مفكرى الاسلام مصنفات فى

العقل وحقيقته ، ومن بينهم الغزالي ، الذى يقف فى تاريخ الفكر الاسلامى عالما بالدين ومفكرا وناقدا للفلسفة وصاحب رأى متميز فى العلاقة بين الوعى ، والعقل ، ولعل ما قدمه فى هذا المجال هو سبب شهرته فى الغرب ، بعد أن ظهرت قدرته على التوفيق بين الدين والعقل .

وهناك رأى يدعى انه بكتابه تهافت الفلاسفة ، قضى على الفلسفة فى الشرق قضاء مبرما ، لم تقم لها بعده قائمة ، مع انه حارب فى كتابه ذلك الميتافيزيقيا الاغريقية التى لا تقوم على أدلة كافية ، وقد واجهها بسلاح المنطق والعقل ، وقد كان من آثار محاربة الغزالي للميتافيزيقيا الاغريقية تزايد الاهتمام بالعلم .

ويذكر الغزالي .. « شمرت عن ساعد الجد ، فى تحصيل ذلك العلم ( الفلسفة ) من الكتب بمجرد المطالعة ، ومن غير الاستعانة باستاذ ، فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، فأطلعنى الله بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلفة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين وظللت مواظبا على التفكير فى ذلك العلم بعد فهمه قريبا من سنة أخرى .. حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس .. وتحقيق وتخيل » ..

ويرى أن اقوالهم فيما يتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق من شىء بالأمور الدينية نفيا أو

اثباتا بل هي أمور برهانية لا سبيل الى مجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها .

وبعدها ناقش الامام الغزالي مذهب التعليمية ، فاليقين عند أهل هذا المذهب هو ما يقول به الامام المعصوم ، وهو مذهب باطنى شيعى ، ودارت هذه المناقشة عندما اصبحت بغداد هي العاصمة الفكرية ، يعيش فيها الخليفة العباسى ، أما السلاجقة ، فقد جعلوا عاصمتهم السياسية نيسابور ، وكانت تتلاطم فى بغداد أمواج جميع الحركات الاسلامية ، وكان بها لجميع المذاهب انصار ، وكان للوزير السلجوقى نظام الملك أثر فى حياته فهو الذى اختاره للتدريس فى المدرسة النظامية .

وكان التحدى الرئيسى للسلطين السلاجقة يأتى من المذهب الاسماعيلى ، وقد لقى كل من نظام الملك ومن بعده فخر الملك مصرعه على أيدي اتباع هذا المذهب ، كما شهد هذا العصر ايضا انتعاش الحركة الصوفية بين العامة .

ويذكر الغزالي فى الرد عليهم .. « وكانت حينئذ قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة الأمور ، من جهة الامام المعصوم ، القائم بالحق ، فعن لى أن أبحث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما فى كتبهم » ..

فبعد أن درس كتبهم دراسة متأمله ، وقف عند قولهم بأنه لابد من معلم معصوم يعلم الأمة ، وقبل هذا القول ، على أن

المعلم المعصوم هو النبی صلی الله علیه وسلم ، لا الإمام كما تدعى الباطنية، كما رد على فكرة الغيبة التي يؤمنون بها ، وانتقد رفضهم للإجتهد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده ، فإن لم يوجد إجتهدنا ، فالاجتهاد ضروري «النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، فلا بد من الاجتهاد في إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة» و« ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب العلم .. ولم يتعلموا منه شيئا » .

وهو يرفض الباطنية بعد أن رفض الفلاسفة والمتكلمين .

ويختار التصوف كموقف ومنهج للمعرفة ، ويقول في المنقذ من الضلال .. « إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل ... وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشيع وأسابها وشروطها وبين أن يكون صحيحا شيعانا ، وبين أن يعرف حد

السكر وبين أن يكون سكراناً ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه ، وهو سكران وما معه من علمه شيء والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء .. وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال .

ويختم رحلته من الشك إلى اليقين بالقول .. « إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة .

ويختم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن أثره واجتباها ، وأرشدنا إلى الحق وهداها . »

٤

إعدام شاعر  
عمارة بن أبي الحسن اليمني  
( ٥٢٧ هـ )

هذه واقعة نادرة الحدوث على طول التاريخ المصرى ..

إنها واقعة إعدام الشاعر عمارة اليمنى فى القاهرة سنة ١١٧٣ م - ٥٦٩ هـ ، وتأتى غرايتها لما يتمتع به العالم والشاعر من مكانة عالية فى مصر المحروسة ، التى يجنح مجتمعها لرفع شأنهما ، والتسامح معهما .

فما بالك ، وشاعرنا شاعر فحل وضيع على أهل مصر ، ا لقد قيل أيامها ، أن موته كان لاشتراكه فى مؤامرة لقلب نظام الحكم ، تعيد الدولة الفاطمية والفكر الشيعى إلى البلاد ، وأن لها علاقة بالغزاة من الفرنجة ، ولم يعدم لكونه شاعرا أو فقيها .. فهل لقى الشاعر حتفه لوره فى المؤامرة ، أم بسبب ما يتغنى به من شعر ، وما يكتبه من نثر .. ؟

ولم يتركنا الشاعر عمارة اليمنى حيارى ، بعد أن ترك لنا سيرته الذاتية ، فى كتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ، وسجل فيه مدى اضطراب عصره ، وتناول علاقاته برجال الحكم فى مصر ، الخلفاء والوزراء ، ونقل الحياة الثقافية والفكرية ، وأثبت قصائده فى مديح ورثاء الدولة الفاطمية ، وشكواه ومدحه لصالح الدين ، بل وحتى مدحه للقاضى الفاضل الذى أصدر فيما بعد حكما بإدانته .

لقد كتب كل ذلك بعبارة سهلة جزلة واضحة صريحة ، وخاصة عندما قدم كتابه بقوله .. « فضل الله الإنسان بعقله ونطقه ، وهذا مجموع ما كتبت ، لم أقصد به شيئا



مخصوصا ، ولا فنا منصوصا - قبل شيوع فن كتابة السيرة الذاتية - ، ولم أورد فيه إلا ما أملاه خاطر ، أو رواه من أقيمه فى الصدق مقام الناظر .. وأشرت فيه إلى النكت العصرية ، فى أخبار الوزراء المصرية ، ومادام الليل والنهار دائمين ، والشمس والقمر دائبين ، فالعجائب المتولدة صيور ، والتواريخ لها قيود ، وما يخلو الإنسان من بداية مهده ، إلى غاية لحدّه ، من الوقوع إما فى أحسن الأحوال أو قبح أهوال ، ويستطرد وكأنه يقرأ الغيب .. » إذا لم تؤرخ النوازل ، عفى النسيان آثارها ، وطمس الإهمال أنوارها ، وأشرت فيه إلى ما شأهت . من غير إفراط فى أوصافهم ، ولا تفريط فى إتصافهم ، وفى كتابى هذا أقتصر وأختصر ، وأذكر من مولدى وموطنى ونسبى طرقا أبنى عليها أول حالى وآخر مالى ، فقد قيل الإنسان من حيث يولد يوجب ، ومن حيث ينبت يثبت ..

وأما النسب فقحطانى ، وأما الوطن فممن أهل الجبال بتهامة اليمن ، من بلدة يقال لها مرطان ، أبأوه سادة قومه ، منهم العلماء والفقهاء والقادة » عندما بلغت الحلم ، سافرت وأقمت فى زبيد أدرس المذهب الشافعى ، وأتقن لغتى واتفقه فى دينى ثم عملت بالتجارة ، بين زبيد وعدن مدة عشر سنوات ( من سنة ١١٤٣ م إلى سنة ١١٥٣ م ) ، ونظمت الشعر واتصلت بملوك اليمن حتى قيل .. أصبحت تعد من جملة أكابر

التجار ، وأهل الثروة ، ومن أعيان الفقهاء الذين أفتوا ودربوا غيرهم ، ومن أفضل أهل الأدب منزلة وأفصحهم عارضة »

### ● الوبر والحضر

ولا يفوت قارئ هذه الفترة أن يلحظ ثقافة العصر ، التي تتميز بالاعتزاز بالأنساب ، وتميز البادية عن الحضر ، ويتباهى عمارة قائلها .. « وأهل تهامة اليمن ، أهلها بقية العرب ، لأنهم لا يساكنهم حضري ، ولا يناكحونه ، ولا يجيزون شهادته ، ولا يرضون بقتله قدرا بأحد منهم ، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » ! ونمضى معه فى رحلة حياته ..

يحج إلى بيت الله الحرام سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ، وتتوثق علاقته بصاحب مكة قاسم بن هاشم أمير الحرمين ، ويبعثه إلى مصر برسالة إلى الفائز خليفة مصر الفاطمى ، وأخرى إلى وزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك ، واستغرقت هذه الرحلة نحو ثمانية أشهر ، أصبح فيها عمارة اليمنى أحد أبرز وجوه منتدياتها وهو المتحدث اللبق وصاحب النظم والشعر والبلاغة ..

استقبله الصالح فى قاعة الذهب فى قصر الخليفة ، والذى كان يطل على ما يطلق عليه اليوم شارع المعز لدين الله ، وفى اللقاء الأول وقف عمارة وأنشده :

قرين بُعد مزار العز من نظرى  
حتى رأيت إمام العصر من أمم  
نهل درى البيت أنى بعد فرقة  
ما سرت من حرم إلا حبرم  
حيث الخلافة مضروب سرادقها

بين النقيضين من عفو ومن نقم  
وبعد إنشاده تلك الأبيات ، تدفقت عليه الخلع والعطايا ،  
ونُخلع عليه من ثياب الخلافة ، وتناول الوزير طلائع خمسمائة  
دينار ، وأرسلت إليه سيدة القصر بنت الحافظ الخليفة السابق  
خمسمائة دينار أخرى ... « ونظمتنى الصالح للمجالسة فى  
سلك أهل المؤانسة ، ووجدت بحضرته أعيان أهل الأدب » .  
ولم يدرك أن هذه أولى خطواته نحو نهايته .

### ● أحوال مصر ومجالسها

وينتقل عمارة فى سيرته بعد هذا المدخل إلى مذكرات  
سياسية هامة ، ينقل فيها للقارئ أحوال مصر ومجالسها ،  
بعد أن رجع إلى مصر للمرة الثانية سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م ،  
بعد أن أوفده مرة أخرى صاحب مكة ، ويحتفى به المصريون ،  
وعلى رأسهم الوزير طلائع ، وتتدفق عليه العطايا ..

وتغريه القاهرة ومجالس المؤانسة بالإقامة والاستقرار ،  
رغم أحداثها السياسية العاصفة ، ورغم حدة الصراع الفكرى  
والسياسى ، ولم يكن غريبا شيوع أحد جوانب الإرهاب  
الفكرى الذى يسجله عمارة اليمنى . ضاربا لذلك مثلا ، عندما  
وقع خلاف بين والى قوص وبين أمير الحرمين ، ونقل والى  
قوص للوزير الصالح .... « أنى - أى عمارة - طعنت فى  
مذهب الإمامية (الشيعية) فكتبت إليه :

ولى تحت دار الملك يومان لم تلح  
لعينى علامات الكرامة والبشر  
وقد أخذت أبام قوص نصيبها  
لهل نقلت تلك السجايا إلى مصر  
وبعدما خرج أمر الوزير باكرامى وإيصالى إليه .

ويورد مثلا آخر عندما يشكو ما يدور فى مجلس الوزير  
الصالح ... « جرى من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره  
وسماعه ، قول الله عز وجل .. فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا  
فى حديث غيره .. ، فاستوحش الوزير من غيبتى ، وتسأل :  
خيرا ، فأجبت : لم يكن بى وجع ، وإنما كرهت ما جرى فى  
حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك  
حضرت .. وكان مرتاضا حصيفا لقى فى ولايته فقهاء السنة  
وسمع كلامهم ..

ورغم هذه الواقعة التى يثبتها فى كتابه ، يذكر عماد الدين الكاتب ، أن الصالح بن رزيك طلب من شاعرنا أن يصبح متشيعاً ، ويعطيه ثلاثة آلاف دينار ، وتأبى عمارة عن الانتماء إلى القوم .

### ● بين السقوط والقيام

ولا تمضى الأيام على حالها ، وتسقط البلاد فى عاصفة دامية ، ويقتل الوزير الصالح بن رزيك ، وتشتعل المنافسة الحادة بين ضرغام وشاور ، ويستتجد الخليفة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين - بنور الدين صاحب الشام ، فيرسل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتوالى الأمور والأحداث ، ويصبح أسد الدين وزيراً للخليفة ، وعندما يخطفه الموت يتولى الوزارة من بعده صلاح الدين . ويصبح وصوله إلى الوزارة الخطوة الأولى فى قيام دولة جديدة والقضاء على الخلافة الفاطمية .

وتنعكس هذه الأحداث على السيرة الذاتية لشاعرنا ، ويصف العديد من صورها .. ويروى مقتل الصالح قائلاً .. « ولما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت ، وذل الجرى وخاف البرى » ، فلم أشعر حتى وصلنى غلمانه بخمسين ديناراً ، وقال إبنه الناصر .. « إنه قد جاءنا من هذا الأمر ما يشغلنا عنك ، ولما لا ندرى ما تكون العاقبة ، فانقل أهلك إلى مصر -

ورتب أحوالهم بهذا الذهب ، فانتقلت إلى مصر ، وصعدت إليّ فوجدته في قاعة البحر وهو لا يوصل إليه لفرط الزحام عليه ثم بصر بي فأومأ لى بيده أن أدور من ناحية أخرى ، ففتيت الخريطة وقبض لى منها قبضة بلا عدد ، زادت على الثلاثين . وقال : اشتر بهذه الدنانير على وجه العيد ما يحتاجه أهلك ، فإننا عنك مشاغيل .. »

ويروى عن مقتل الناصر بن الصالح بن رزيك ما يلي :  
« دخلت قاعة السر من دار الوزارة وفيها طيٌّ بن شاور وضرغام ، وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ، ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم في طست ، فما هو إلا أن لمحته عيني ، ورددت كمي على وجهي ، ورجعت على عقبى ، وما ملأت عيني من صورة الرأس ، وما من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم ، إلا من مات قتيلًا ، وقطعت رأسه عن جسده ، فأمر طيٌّ من رذني ، فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عيني ، فرفع الطست ، وقال لى ضرغام : لم رجعت ؟ قلت : بالأمس وهو سلطان الوقت الذي نتقلب في نعمته ، قال : لو ظفربنا ما أبقي علينا ، قلت : لا خير في شيء يؤول الأمر بصاحبه من الدست إلى الطشت » !!!

واستطاع شاعرنا مع كل هذه التغيرات السياسية الدامية أن يحافظ على علاقات ود وصداقة ، مع الذين تقلبوا على

كرسى الحكم ، ونظم فى كل منهم المدائح ، وتلقى منهم العطايا ..

ولم يمنعه ذلك من أن يتأسى عند زوال دولة بنى رزيك ، ويذكر .. « إنما زالت دولة مصر بزوالهم » !! ، أما شاور خصم بنى رزيك فيقول عنه .. « أما أخلاق شاور فكانت مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل الناصر بن الصالح ، فإنها سودت ما أبيض من على قدره !!

ولم يمنعه رأيه هذا فى اليوم التالى لقتل شاور لابن رزيك من مدحه :

صت بدولتك الأهام من سقم

وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

### ● الوزراء وأكابر الأمراء

« قد أتيت على نبذة بيسيرة من الفقر العصرية ، فيما شاهدت من أحوال الوزراء المصرية ، وأنا ذاكر فى هذا المختصر نتقا جرت لى مع أقارب الوزراء ، وأكابر الأمراء ، فما منهم إلا من كآثرته ، وعاشرته ، وبلوت سمينهم وغثهم ، وقويهم ورثهم ، وانكشف المصقول من الصدى ، والجيد من الردىء .. »

هذا ما جاء على لسانه فى كتابه ، ولكن بينما يؤرخ لهذه الوقائع ، تظهر القاهرة غامضة وبلا ملامح ، ولا تلمس الأسى لديه وهى تحترق وتأكل النار بيته ، لكى لا تسقط فى أيدي الفرنجة ، وتبدو الهجمة الصليبية باهتة فى كتاباته ، وكأن القتال فى مواجهة الغزاة مثل غيره من الصراعات المحلية الأخرى . !

وكل ما نقله عن القاهرة مجالسته فى قصورها للوزراء والأمراء والأدباء ، ولم يشبعنا بوصف عمارتها وأسواقها أو جوامعها ، ونعرف فقط أنه كان يسكن صف الخليج ، عندما احترق منزله وحصل من شاور على تعويض .. « فمن كرم شاور بعد حريق دارى محل شط الخليج ، ونهب ما أبقيت النار لزمنى دين كثير فأداه عنى ، وبقيت منه مائتا دينار فدفعت لى مائة ، وأمر لى بمائة كبش بيعت بمائة وعشرين دينارا .. » !

ولم نعرف من عادات وتقاليد القاهرة ، إلا أن الوزراء يتولون حتى مسئولية وجود زوجة صالحة له ... يقول .. « حضر ضرغام معى دفن امرأة لى ماتت ، فسأل .. أعندك حرة غيرها ، قلت : لا . فقال : لا خير فى دار ليست فيها حرة مهيبة ، ثم ذكر لى عدة نساء وقع الرأى على واحدة منهن ، قال ضرغام .. على أن أخذ لك مهرها ، وكان حسن التأنى فى الحوائج .. »



ويسجل عمارة بعض الوقائع التاريخية ، ولكنه يوجز عندما تنتظر منه الإفاضة .. يروى .. « فى أول ليلة دخل فيها شاور القاهرة ، ارتحل أسد الدين شيركوه طالبا بلبيس للإقامة : ثم عاد إلى القاهرة فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح ، وأصيب شاور على باب القنطرة بحجر كاد أن يموت به ، وتعقب ذلك تثقيل القتال حتى دخلت القوات المهاجمة من الثغرة، ثم تبع هذا مجيئ الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس » .

وكثيرا ما سخط شاعرنا على ما يفعل ، وكثيرا ما قرر التوقف عن مدح الحاكم ، يقول .. « رأيت شاور يوما وقد انشرح صدره فقلت له : إن لى مدة تنازعنى النفس فى الحديث معك فى حاجة لى ، أن تعفينى من عمل الشعر ، وتنقل الجارى على الخدمة راتبا على حكم الضيافة ، فإنى أرى التكسب بالشعر والتظاهر به نقيصة فى حقى ، قال شاور: فما منعك أن تستعفى فى أيام الصالح وابنه ؟ .. قلت : كانت لى أسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحباب وبابنى الزبير ، وانقرض الجيل والنظراء .. وأجاب : تعفى ، ثم أمر بإنشاء سجل بإعفاى ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك .. »

ولم ينقطع رغم ذلك - عن نظم الشعر، ولم يتوقف عن مدح الأمراء والحكام ، يغيره ما يجلبه المديح لقائله من النفوذ والفلوس ، والدولة الفاطمية من حوله تحلل .

وتميزت هذه المرحلة بضعف الخلفاء الفاطميين وتحكم الوزراء ، وتصارع الأجناد من السودان وأتراك ومغاربة ، مما كان إيذاناً منها بنهاية الدولة الفاطمية .

### ● الوحدة والقوة

يدور الصراع بين أطراف الحكم ، واندمجت الحريم فى مؤامرات القصور ، وعمليات القتل والغدر ، من لم يمت بالسم قتل بخنجر فى الظلام ، والكل غافل عن الخطر الصليبي وعن المستوطنات التى تقوم فى الشام وفلسطين ، وأصبحت مصر نقطة لقاء وصراع بين كل من نور الدين والصليبيين ، ويعرف كل منهما أن من يضمها إلى جانبه سيحسم الصراع لصالحه . وفى ذلك يقول شاعرنا عمارة اليمنى :

يارب إنى أرى مصرا قد انتهت

لها عيون الأعادى بعد رقدتها

وهب لنا منك عرونا نستجير به

من فتنة يتلهى جمر وقذتها

وأدرك الجميع أن ما حققته الحملة الصليبية من نجاح يعود إلى غياب حاكم قوى ، ووجود عدد من الحكام الضعاف المتقاتلين ، ويؤكد المؤرخ الصليبي ويليم الصورى .. « لن تنعم القدس بالأمان ، إلا إذا استمر العداء بين القاهرة ودمشق .. »

وبدأ عماد الدين زنكى مسيرة التوحيد من الموصل إلى مصر ، ثم واصلها نـسـور الدين محمود ، وأكملها صلاح الدين، الذى وضع أمامه هدفين ، هما توحيد الشرق وطرد الغزاة بتوحيد مصر والشام .

### ● قراقوش فى القاهرة ا

وتكملة حكاية عمارة اليمنى لا توجد فى سيرته الذاتية ، ولكن عند أولئك الذين دونوها ..

وكان من الطبيعى أن يواجه صلاح الدين فى القاهرة ، الجماعات التى تزدهم بها العاصمة، من أنصار الخلافة الفاطمية ، ويسجل صلاح الدين فى تقرير أرسله إلى بغداد .. « وصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر .. » ، وفرض التهديد الخارجى على صلاح الدين أن يأخذ الناس بالشدة ، وظهرت شخصية مازالت رمزا للقسوة وهى شخصية الخصى بهاء الدين قراقوش ، الذى فرض رقابة صارمة على كل من عرف بميوله الفاطمية .

وكان المواطنون كما وصفهم القاضى الفاضل فى رسالة إلى صلاح الدين :

« ليس لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك

إلا بأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري منهم الخطوة  
شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله ، وكأنهم  
تدعوهم لنفسك ، وتسالهم الفريضة وكأنما تكلفهم التافلا  
وتعرض عليهم الجنة ، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم .. »  
وسبق ورأينا كيف استنجد شاور بالصليبيين ودعاهم إلى  
إحتلال مصر . !!

وفى هذا السياق لم يكن شاعرنا يحتاج إلى تلك الرقابة  
الصارمة ، فلم يخف مشاعره عند زوال الدولة الفاطمية ، وراح  
يدبج القصائد فى رثائها ويظهر أسفه على زوالها ، وكتب  
لصلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله سماها « شكاية المتظلم  
ونكاية المتألم » ، وعلى الجانب الآخر نظم قصائد يمدح  
صلاح الدين ، وأخاه شمس الدولة .  
ومما نظمه :

أصبحت الأيام منقاده الرأس  
إلى كفيه بعد الجماح  
ملك إذا حدثت عن بأسه  
قال الندى وأوكر حديث السباح

### ● العمل فى الخفاء

ولما كانت أحد مكونات الدولة الفاطمية تقوم على الخفاء  
والستر ، كان إعلان زوالها إشارة البدء للعمل السرى لإعادتها ،

التنسيق بين الأطراف المتعددة ، من بقايا جنودهم ، وداعى  
 «عامة مذهبهم ، وأن تبدأ خطة العمل التى تقوم على دفع قوات  
 صلاح الدين التى يقودها شمس الدولة إلى اليمن ، وأغرى  
 عمارة شمس الدولة ، بقوله :

أمامك الفتح من شام ومن يمن فلا ترد رموس الخيل باللجم  
 وعندها يتم الاتصال بالفرنجة وطلب تجريد حملة على  
 مصر بقواتهم من الشام وصقلية ، والتنسيق مع الاسماعيلية  
 فى الشام والحشاشين فى إيران ، وبعد نجاحهم فى إغراء  
 الجيش بالسفر إلى اليمن نجحوا فى دفع أسطول صليبي إلى  
 الاسكندرية من جزيرة صقلية قوامه ثلاثمائة سفينة .

وتتوقع الخطة أن يخرج صلاح الدين لقتالهم ، وينقض  
 المتآمرون على من يتبقى من جنده فى القاهرة ، وكشف  
 تفاصيل الخطة الفقيه الواعظ ابن نجا الدمشقى ، الذى رفض  
 التواطؤ ، ولم يقبل التعاون مع الفرنجة ، ولكنه تظاهر بالموافقة  
 ثم نقل خططهم لصلاح الدين الذى أمره .. « بمخالطتهم  
 ومواطأتهم وتعريفه بالمتجدد من أمورهم .. » .

وعندما وصل رسول من الصليبيين إلى صلاح الدين ،  
 واسمه جورج ... « إن جورج يحمل رسالة مخالطة لا رسالة  
 مجاملة ، ويحمل بلية لا هدية » ، وكان رجال صلاح الدين فى  
 انتظاره يتابعون ويسمعون .

## ● ما سجله التاريخ

ويسجل ابن الأثير المؤرخ الذي عاصر تلك الأحداث بقوله:  
 صلب صلاح الدين ثانياً يوم في رمضان في سنة ٥٦٩ هـ،  
 جماعة ممن أرادوا الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء  
 العلويين.

وسبب ذلك أن جماعة من شيعة العلويين منهم عمارة بن أبي  
 الحسن اليمنى الشاعر ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي  
 العرويس، وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم  
 السودان ، وحاشية القصر ، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح  
 الدين وجنده ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ،  
 ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال  
 والبلاد ، فإذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ،  
 ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية ، وعاد من  
 معه من العسكر الذين وافقوهم عنه ، فلا يبقى له مقام مقابل  
 الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم  
 ثاروا به ، وأخذوه أخذاً باليد لعدم وجود الناصر له والمساعد،  
 وقال لهم عمارة .. وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً  
 أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده .

وما زال الحديث لابن الأثير ..

« وأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ، ولم يبق إلا رحيل الفرنج ، وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم فى هذا .. الأمير زين الدين على بن نجا الواعظ ، والمعروف بابن نجيه ، وتبوأ الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقاضى ، إلا أن بنى رزيك قالوا : يكون الوزير منا ، وبنو شاور قالوا : يكون الوزير منا ، فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين ، وأعلمه حقيقة الأمر ، فأمر بملازمتهم ، ومخالطتهم ، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه ، وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه .

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامى إلى صلاح الدين يهديه رسالة ، وهو فى الظاهر إليه ، والباطن إلى أولئك الجماعة .

وكان يرسل إليهم بعض الرسل وتأتيه رسلهم ، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال ، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به وداخله ، فأخبره الرسول على حقيقته ، فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة ، منهم عمارة وعبد الصمد والعرويس وغيرهم وصلبهم .

وكان ابن نجا الواعظ قد أبلغ القاضى الفاضل ، فأخذه إلى صلاح الدين فى الجامع ، فقام وأخذ الجماعة وقرهم ، فأمر القاضى بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلبه ، قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه ، وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : يامولانا لا تسمع منه فى حقى ، فغضب الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان يشفع فيك ، فندم ثم أخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ولم يجتمع به ، فقال عمارة !

عهد الرحيم قد احتجب ..

إن الخلاص هو العجب .

ويسجل الحال القاضى الفاضل الذى حاكم المتأمرين وأمر بإعدامهم .. « لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ، ومكيدة يحيكونها ، وكان أكبر ما يتعللون به ، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة إلى الإفرنج ، يوسعون ، لهم فيها سبيل المطامع ، ويزينون لهم الإقدام والقُدوم .. »

ومن هنا نتبين أن عمارة اليمنى ، لم يكن يعزف على قيثارته من أجل آمال وأحلام مجتمعه ، بل توجه بفنه إلى السلطان ، يطلب ذهبه وعطاياه ..

فانعزل الشاعر عن أهله ، وأمكن شنقه .





"الاعتبار"

أسامة بن منقذ

( ٤٨٨ هـ - ٥٤٨ هـ )

هذه سيرة الفارس العربى أسامة بن منقذ ، الذى عاش فى عصر الشعر والفروسية ، وخاض غمار الحروب الصليبية ، وسجل تجربته فى كتاب « الاعتبار » ، التى تؤكد أن العجز أمام الغازى يؤدى عادة إلى التفكك والتناحر، وإذا إنتهى التناحر زالت الهزائم .

ومن هنا جاءت أهمية كتاب « الاعتبار » ، الذى يمثل وثيقة هامة ، إستمرت مجهولة ومحفوظة فى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، حتى نشرها المستشرق الفرنسى هيرتويج دربنورج، ثم ترجم بعدها إلى عدة لغات منها الفرنسية والروسية والانجليزية ، ونال الكتاب هذا الاهتمام لما يقدمه من حقائق حية حول أحد فصول الصراع بين الشرق والغرب .

وقام الأستاذ اللبناني الأصل الأمريكى الجنسية الدكتور فيليب حتى بنشر المخطوط ، بعد أن صحح أخطاءه ، فقد أملاه صاحبه بعد أن تجاوز التسعين من عمره .

وعادة يلجأ الكاتب إلى تسجيل سيرته الذاتية ، عندما يدرك ذاته ويفهم عصره وتجربته إدراكا طاعيا ، وتلح عليه تجربته فيصوغها صياغة تفيض حيوية وحرارة ..

وتكشف سيرته الملامح الشخصية لبطلنا ، فهو ينتمى إلى عائلة عريقة ، يختار منها الأمراء ، وارتبط تاريخ أسرة المنقذ بإمارة شيزر فى الشام ، وأصبحت الفروسية والفصاحة جزءاً

من تاريخها، ووضعتها الأقدار وسط كل الصراعات التي جرت  
فى بر الشام .

وفيما يرويه عن نفسه نجده مقدماً رابط الجأش ، ألبا  
يهجر مسقط رأسه لكى يحافظ على إباءه ، ويتنقل فى قلب  
الأحداث بين القاهرة ودمشق والقدس وحلب ، يرسم ويخطط  
ويدبر ، يقود الجيوش ويحسم المعارك .

ولم يكن مخادعاً يوماً ، ولكنه كان سياسياً ماهراً ،  
إضطرت أحداث عصره أن يتعرف على طريقه وأن يجد  
أسلوبه الخاص .

وعبر عن تجربته شعراً جميلاً صافياً .

يوصف وهو فى السادسة عشرة من عمره بأنه جسيم مثل  
أبيه، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ذو جبهة عالية  
يتوجها شعر حالك السواد ، تظهر على وجهه سمات النبل ،  
يجيد الرمي والقنص، حتى أنه يضع برتقالة على الأرض  
ويقف بعيداً عنها أربعين خطوة ولا يخطئها نشابه ( قوسه ) ،  
وهو ذو أنف مقوس ولحية مدببة ، نظر الى الحياة وهو  
الصياد الماهر على أنها كالغابة لا يسلم فيه سوى القوى .

يبث فى قلوب الصحاب والجد الشجاعة أثناء المعارك ،  
قليل الكلام ، وإذا تحدث فبصوت خفيض يملأه الثقة ، يقول  
عنه أبوه ، " أنه أمام إنسان لابد أن يجبر غيره على طاعته  
وقبول أوامره . "

لم يتطلع يوماً إلى الراحة ، ورفض الدعة والاستقرار ، واعتاد أن ينام وهو قاعد ، وإذا كان قد نجح فى إخضاع سيفه ، فلم يسيطر على مشاعره ، ولا يكف عن إبداء إعجابه بجوارى القصر ، وعجز عن مقاومة الحب والجمال .

ولخص أسامة دوره ودور الفارس فى عبارة موجزه .. « القوى للضعيف ، والفرد للمجموع » ، يسجل فى سيرته وشعره الكثير من صور الحروب الصليبية بكوارثها وأحزانها ، عاش خلالها حالة النصر ومرارة الهزيمة ، وانتقلت مشاعره بين اليأس والرجاء ، وتراوحت وهو يتابع التلاحن بين الأمراء والمذاهب ، بينما الجميع مهددون بجيوش غازية جارة .

وفى ظل الإهتمام المعاصر بذلك الفصل من التاريخ ، تقف سيرته مصدراً حياً ، يعكف عليه المؤرخون ، يبحثون وينقبون عن الحقائق التى إختفت وراء غبار المعارك ، وأخفاها التحيز بين أشلاء الضحايا تارة وصيحات المنتصرين تارة أخرى ، ولعل الوقت قد حان لإعادة تشكيل اللوحة التاريخية من جديد .

فقد جاء فارسنا إلى الحياة عام ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م ، أى قبل نهاية القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) ، أى ذات العام الذى ألقى فيه البابا أورباتوس إشارة البدء لتلك الحروب الطاحنة ، عندما ألقى خطبته الشهيرة التى نادى فيها

بالتعبئة من أجل شن القتال لأنتزاع كنيسة القيامة فى القدس من أيدي من أسماهم بالأشرار ، وعلى إثر هذا الخطاب ، تنادى الإفرنج للحرب، واستجاب للنداء نحو مائة وخمسين ألف رجل ، وحملوا السلاح وتوجهوا إلى فلسطين فى قتال شرس إختلعت فيه أمانى الأتقياء وأعلامهم مع جشع التجار ، كما جذب النداء طموح القادة وأحلام المغامرين .

ووافت فارسنا المنيه عام ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م ، عندما أن لتلك الحرب أن تصل إلى نهايتها ،

وقد صور دوافع هذه الحرب ويليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م ) أجمل تصوير ، عندما قال إنها إشتعلت لتحول دون نشوب القتال بين الإفرنج أنفسهم ، وجاء فى الفصل الأول من مسرحيته الشهيرة الملك هنرى الرابع ، على لسان الملك قوله :

لذلك يا أصدقائى

بقدر ما يتعلق الأمر بقبر السيد المسيح

الذى يقف جنده الآن تحت الصليب المقدس

نلتزم ونتعهن بالقتال

ونعقد العزم على أن نقوم فى التوالى للحظة

بتجنيد قوة الإنجليز

الذين صبت أسلحتهم فى أرحام أمهاتهم .

لمطاردة هؤلاء الوثنيين فى تلك  
الساحات المقدسة.

وقبل شكسبير بما يزيد عن أربعمائه عام قدم أسامة  
شهادته من على الجانب الآخر بعد أن عاش عهود الحكام  
المجاهدين الثلاثة، عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين .

### ● الأمير العربى

جاءت مذكرات الأمير العربى أسامه بن منقذ أطرف وأهم  
المذكرات العربية ، ونموذجاً حياً يروى صاحبه خلاله مغامراته  
بسهولة ويسر ، فى السلم وفى الحرب ، ويتجرد فى معظم  
أحكامه من الهوى ، وقد أملاها فى دمشق بعد أن أُرغشه الكبر  
عن حمل السيف ، وقيدته الهرم عن الرحلة والسفر ، وأودع فى  
هذه المذكرات كل رحيق حياته .

يبدوها منذ الطفولة « أيام الحلم والأسطورة » ، وهنا نتفق  
مع ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى من أن « كل ترجمة  
ذاتية مهما يكن من دقة صاحبها وبراعته فى الوصف ، ومهما  
يكن حرصه على أن يكون صريحاً ، قاسياً فى تشريح  
نفسيته، والكشف عن نواحي حياته الحساسة المستورة ، هى  
مزيج إشتراك فى تكوينه الحقيقة والخيال . »

ولم يذكر فى سيرته مآثره بل توزعت فى كتب سواء ، نوه  
عنها « أبو شامة » فى تاريخه « الروضتين » ، وذكر ما أبداه

من ضروب البسالة فى حصار قلعة " حارم " عندما كان فى طليعة المقاتلين ضد الغزاة ، كما أورد هذه الواقعة كلا من المقدسى وابن الأثير ، وكان صلاح الدين الأيوبي يطلب مشورته ، عندما عملا معا فى بلاط نور الدين ، حتى إتخذ صلاح الدين من إبنه مرهف مرافقا وجليسا له .

ويسجل أسامة فى كتاب « الاعتبار » فضل صلاح الدين .. يقول .. " نادانى إليه مكاتبة مولانا ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيى دولة أمير المؤمنين .. فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملنى إلى باب العالى يانعا الغامر الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان منى ، ونفق على كرمه ما كسد عنه سواه »

## ● المكان :

وقبل أن نمضى فى جولاته وصولاته ، لنبدأ معه فى مسرح طفولته وصباه وريعان شبابه .

تقوم فوق تل صخرى أطلال قلعة وحصن يسمى سيجر ، يلتف من حوله نهر العاصى ، ويبعد هذا المكان مسافة خمسة عشر ميلا غرب مدينة حماة ، وتقوم فوق هضبة سماها الجغرافيون « عرف الديك » ، يحدها فى الغرب خندق شقته يد البشر فى الصخر ، ولا تزال بقايا هذا الحصن شاهدا على مناعته .

وهذا التل وذلك الحصن شهد معظم الأحداث التى عاشها  
أسامة فى مطلع شبابه ، فقد آل هذا الموقع إلى بنى منقذ ،  
بعد أن تداوله كل من الروم والفرس ، وسيجر هى تحريف لكلمة  
شيزر القديمة .

ولد أسامة فى هذا المكان لأب صالح يزهد فى السياسة  
وفى المناصب ، تنازل عن الإمارة لأخيه عز الدين بن العساكر.  
وينقل أسامة عن والده قوله .. « والله لا وليتها ، لأخرجن من  
الدنيا كما دخلتها » .

ويقدم أسامه والده فارساً شجاعاً أديباً شاعراً تقياً ،  
يخرج إلى الصيد ، وعندما يستريح يتلو القرآن الكريم .. «  
يركض نهاره ، ولا يتصيد إلا على حصان ، ونحن معه أربعة  
أولاد نتعب ونكل ، وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب ، ويطارد  
اليمامير فى أرض حصن الجسرة ، فصرع منها يوماً خمسة  
أو ستة على فرس له دهماء ، وكنا إذا وصلنا موضع الصيد  
ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يتلو القرآن ونحن نتصيد  
حوله ، ولم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ  
كتاب الله .. » و .. « كان الوالد ، كثير المباشرة للحرب ، وفى  
بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه » ، « وما نهانى عن  
قتال ولا ركوب خطر قط ، مع ما كان يرى فى وأرى من  
إشفاقه وإيثاره لى » .



أما أمه ، فكانت توزع السلاح على الرجال ، حينما حوصرت القلعة يوماً بالأعداء ، ويروى أسامة ، أنها أخذت إبنتها الكبرى وأجلستها على شرفة تطل على الوادى ، ويسأل أسامة عن أخته « أى شىء تعمل ها هنا .. » ، تجيب الأم .. يا بنى إذا رأيتهم قد وصلوا إلينا ، دفعتها ورميتها إلى الوادى ، فأراها قد ماتت ولا أراها مأسورة بين يدى الأعداء ... » .

وكان أسامة إبنا وفيا لأبويه ولعصره ، ولم يكن غريبا أن تخلف هذه البيئة فارسا يقتحم المخاطر .

### ● الرحيل إلى مصر .

عاش أسامة بن منقذ فترة فى كنف عمه حاكم شيزر ، الذى كان يعده للإمارة ، فلم يكن له أولاد ، وشاعت الأقدار أن يريزق العم أولادا ، فتحول الحب والرجاء والرعاية إلى خوف وحقد ، ومن يومها لاحقته المتاعب ، وعاش ممزقا بين حبه لأهله وإشفاقه على نفسه ، وانتهى به الحال إلى الرحيل .

فرحل من شيزر إلى الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى ، ولعل ذلك كان من حسن حظه ، فقد نجا من كارثة الزلزال التى ضربت شيزر سنة ٥٥٢ هـ ، وقضى خلالها على أسرة بنى منقذ بكاملها .

وعندما وصل أسامة إلى بيت المقدس حمل معه رصيда كبيرا من التقدير ، فالملك فولك يذكره بالجميل الذى قدمه بنو منقذ لبلدوين الثانى ، وراع الفرسان الداوية فرسان المعبد -- يرحبون به على إعتبار أنه الفارس المثالى .

ووصل أسامة إلى القاهرة عام ٥٣٩ هـ ، وفى صحبته أمه وزوجته وابنه وأخوه ونفر من أتباعه ، وهو يأمل أن يتمكن من القيام بدوره فى صد الغزاه ، فبلاده تخوض صراع أقدار ، وأخذت تقوم الإمارات الصليبية فى الشام ، وكانت سوريا وفلسطين تعانيان من التشرذم والتناحر ، واشتعلت المنافسة والقتال بين الإمارات ، وكان غياب حاكم قوى ، يوحد البلاد يساعد الإفرنج ويغريهم ، بينما الدولة الفاطمية تتفكك بعد أن إنتزع الترك السلاجقة قواعدها فى الشام ، واشتعلت الخصومه بين الخلافتين العباسية والفاطمية .

ويدأ عماد الدين زنكى يوحد البلاد الممتدة من الموصل إلى مصر ، والذى واصلها من بعده نور الدين محمود ، وأكملها صلاح الدين .

هذا هو باختصار السياق التاريخى الذى وصل خلاله أسامة إلى مصر .

وقوبل أسامة فى القاهرة بالحفاوة ، وأنزلهم الخليفة  
الحافظ لدين الله الفاطمى فى قصر الدار السلطانية التى  
بناها الوزير الأفضل بدر الجمالى .

وحرص أسامة على النأى بنفسه عن الفتن ومؤامرات  
القصور .. يقول .. « جرت أسباب أوجبت سيرى إلى مصر ،  
فأخذنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع على بين يديه ،  
ورفع لى تخت ثياب ومائه دينار ، وخولنى دخول الحمام ،  
وأنزلنى داراً من دور الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهى فى  
غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وألتها من  
النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شىء ، وأقمت بها مدة إقامة  
فى إكرام واحترام وإنعام متواصل » .

ولا يستطرد فى وصف الحياتين الإجتماعية والثقافية فى  
مصر ، وهو الشاعر الأريب ، فرغم أنه نأى عن الفتن ، فقد  
إقتحمت حياته ، رغم الحيطة والحذر ، ولاحقته الدسائس رغم  
حرصه على تجنبها ، واتهمته حاشية السلطان العادل - وزير  
الخليفة - بالتحريض على قتله .

فقد كان الأفضل رضوان بن الولخش محبوساً فى دار  
بجانب قصره ، وتمكن الأفضل من الهرب إلى الجيزة ، وجمع

أمره على القتال ، وجند الخليفة جيوشه تحت قيادة صاحب  
الباب تاج الملوك قيمان .

واستسلم الجند للوزير الثائر ، الذى نزل إلى الجامع  
الأقمر، وعاهده بعض الأمراء بالطاعة والنفقة .

وجمع الحافظ السودانية وأسكرهم وأطلقهم وراء  
الأفضل ..

فاندفعوا إلى الجامع الأقمر يتصايحون ، فانفض الأمراء  
من حوله وأجهز عليه الجند .

وحام حوله الإتهام بأن له ضلعا فيما وقع بعد أن آلت  
الوزارة إلى صديقه أبى الفضل عباس بن يحيى ، الذى كان  
أسامة فى صحبته قبل مقتل السلطان ، وأعقب ذلك قتل  
الخليفة الظافر ووزيره ، ولاحق الإتهام أسامة ، وثار أنصار  
الخليفة عليه ، ودار القتال فى الشوارع والبيوت .

هكذا كان استقبال القاهرة له ، بلد يتناحر ويتفكك ،  
ويتصارع فيه الحكام ، وهى لحظات تسبق احتضار الدولة  
الفاطمية .

وزار أسامة ميصال الوزير ليلغه أن الخليفة أقطعه إقطاعا  
بكوم إشفين فى القليوبية ، ومنحه عدة من الخيول والجمال  
والبغال السروجية ، ومائة رأس بقر عدا الماشية .

غير أنه طلب إليه ألا يبرح إلى إقطاعه حتى يأذن له مولاه  
الخليفة ..

وكانت فرصة لكى يتفقد القاهرة التى بهرته باتساعها  
وكثرة عمارتها .

هذه هى العاصمة التى تصلح أن تكون حاضرة العالم ،  
وهى التى تستطيع أن تواجه الفرنجة .

ونتابعه يصف بعض ما جرى بقوله ... « القتال فى  
الشوارع والأزقة ، خيالتهم تقائلنا فى الطريق ، ورجالتهم  
يرموننا بالنشاب والحجارة من فوق السطوحات والنساء  
والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .. »

ويرسم بقلمه صورة بائسة للحياة السياسية فى القاهرة ،  
الفساد وتطاحن الجند والأمراء ، وتعدد الجماعات المسلحة ،  
بعضها من برقة وبعضها مغاربه وفرقه ثالثة من السودان ،  
وبعضها من الترك والغز والديلم ، مضافاً إليهم العربان ،

يتقوى كل أمير بأحدى هذه الفرق ، مع إنصراف الأهالى إلى الزوايا وانتعاش الحركة الصوفية ، واهتزت القيم ، وزلزلت العروش ، مما أفسح المجال ... « لصراع الكباش ونطاح العنزات » !

وينجح بصعوبة بالغة فى استمراره على الحياض بين الفرق المتصارعة ، ويحافظ على صلاته بالسلطان حتى أوفده الملك العادل - ابن سلا - وزير الخليفة الفاطمى فى مهمة إلى نور الدين ، يسأله منازلة الإفرنج فى طبرية حتى يشغلهم ، وتتمكن القوات المصرية من الهجوم على قواتهم فى غزة ... « تأخذ معك مالا وتمضى إليه لينازل طبرية ، ويشغل الإفرنج عنا ، لنخرج إلى غزة .. » ، ويجيبه نور الدين ... « أهل دمشق أعداء ، والإفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما »

ولا يصبح أمام أسامة بعد هذا الجواب ، إلا أن يجمع بعض الفرسان ويقوم بالمهمة بنفسه يقول « فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة شهور ، هجمنا فيها مدينة بينى - فى فلسطين - ، وقتلنا نحو مائة نفس .. ثم جاعنى كتاب - المالك العادل يستدعيني فسرت إلى مصر .. »

وفى القاهرة ، زار أسامة دار الحكمة التى أسسها الحاكم عام ٣٩٥ هـ ، وأدخل داعى الدعاة كلا من الحافظ وأسامة بعد أن طاف بهما المكتبة التى تشمل آلاف الكتب :

وقال الحافظ ، « ها هنا كلام المشاركة الذى يخالف مذهبنا ، وحتى يتمكن دعائنا من الرد عليهم سننظر مفترقين . » وأضاف الحافظ ، « إن ما يعنى المسلمين اليوم هو الإفرنج ، وسنأخذ على عاتقنا مواجهتهم ، لأن مصر تستطيع وستفعل ..

ولكن هيهات فقد استمر الصراع والتناحر على السلطة والمؤامرات التى تدبر بليل ، وأمراء يتنازعون قيادة فرق الجيش ، والخليفة يخرج للقنص أو العبادة ، وأسامة معه .. يموت خليفة ويأتى خليفة يموت الحافظ ويأتى الظافر ، والفرقة قائمة .

### ● أسوان أحد الثغور .

ويزور أسامة القاهرة مرة ثانية ، وقد إشتدت بها الفوضى ، ثم يغادرها ويترك عائلته بها ، ويروى فى مذكراته ... « إتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، وكاتبت الملك الصالح فى تسيير أهلى وأولادى الذين تخلفوا بمصر ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ... »

وكتب الملك الصالح - وزير الخليفة - إلى أسامة يطلب منه العودة إلى مصر قائلا : « أنت تعرف ما بينى وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكه ، وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على المحاربة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك .. »

ولكن ينصحه نور الدين قائلا .. « ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها ، وتعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أخذ لأهلك الأمان من ملك الافرنج ، وابتعث من يحضرهم .. »  
ورغم الأمان وقع أهله أسرى فى أيدي الافرنج أمام ساحل عكا .

## ● صراع وتفاعل

ولعل الخيال أو تلك الصور التى جاءت فى سيرة أسامة ، تقدم لنا صور الافرنج فى المخيلة العربية خلال هذا الفصل من تاريخ الصراع بين الشرق والغرب ، ففيها العديد من اللامحات العامة التى لا تجدها عند سواه من الكتاب .

فكما تتضمن الأحداث الكبرى ، القضايا الهامة تجد التفاصيل الدقيقة أيضا ، وألقى أسامة الضوء على مجموعة من التفاصيل التى تؤكد التفاعل خلال الصراع .



وحقاً ما ذكره المؤرخ البريطاني المعاصر السير ستيفن رونسيمان .

علاقة الشرق بالغرب ، سلسلة طويلة للتفاعل والاختلاط ، « نمت الحضارة الغربية من خلال هذه السلسلة ، وكانت الحملات الصليبية حلقة مأساوية هدامة ، فقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كثير من التقوى وقليل من التفهم ، فلطخت المثل العليا القسوة والجشع ، والتفانى والجلد لوئهما الإحساس الذاتى الأعمى ، وإختلط فيها أخيراً السمو الأخلاقى بضيق الأفق .. »

فكان العرب يعرفون الافرنج قبل هذا الفصل من الصراع ، من خلال العديد من الكتابات التى ألفت خلال القرن التاسع الميلادى ، وهناك سلسلة من الدراسات الشرقية عن الغرب رصدها برنارد لويس فى كتابه « كيف إكتشف المسلمون أوروبا » ، وتضم هذه الدراسات ما أضافه الخوارزمى إلى المعرفة العربية ، وإذا قلت معرفة العرب بما يجرى وراء أسبانيا وفرنسا وروما واليونان ، ولكن سرعان ما وصلت المعرفة العربية إلى الجزر البريطانية وإيرلندا والدول الاسكندنافية مع بداية القرن العاشر ، بفضل مؤلفات كل من ابن الفقيه والمسعودى ، وساهمت كتب الرحالة فى المزيد من المعرفة ، فوصف هارون بن يحيى روما ، وكتب إبراهيم بن يعقوب عن الأيرلنديين وعاداتهم وملابسهم ووصف صيدهم

للحيتان ، وجذب إهتمامه تجارة بوهيميا وصناعاتها الجلدية ومنسوجاتها ، علاوة على أن معرفة عرب الأندلس لأوروبا كانت أكثر دقة فى كتابات الإدريسي ..

ومازلنا فى حاجة إلى من يقدم هذه الدراسات على الجانب العربى ...

وها هى ذى جحافل الإفرنج نأتى إلى بر الشام غازية ، فى صراع أقدار ، وقد تصوروا أنهم أرفع شأننا ومنزلة من أهل الشرق .

ويقدم لنا أسامة صورة الإفرنج فى مخيلة المسلمين فى هذه المرحلة التاريخية ، عندما يسجل الأثر الذى تركه الإفرنج بقوله .. « إنهم بهائم ، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » وفى أتون الصراع قام تفاعل أوقات السلم ، وقامت علاقات عملية جديدة ، عندما توصل الفريقان المتصارعان إلى اتفاق على حماية التجار والمسافرين ، ووضعوا بعض الأنظمة لذلك ، بل وكثيراً ما تأثر الغزاة بحياة الشرق ، فتخلى بعض الإفرنج عن لباسهم الأوروبى ، وارتدوا الملابس العربية ، وفضل قادتهم سكنى البيوت الشرقية الطراز ، وقامت علاقات زواج بين رجال من الشرق ونساء من الغرب والعكس ، حتى نشأ جيل من أبنائهم أطلق عليه « بولان » ، كما وجدت الإمارات الصليبية التى وجدت نفسها داخل شبكات التحالفات والخصومات القائمة بين الإمارات العربية .

وأدرك كلا الفريقين أن كلا منهما لديه نسق حضارى متكامل .

وعالج أسامة فى العديد من اللحاحات التفاعل الداخلى بين البشر . من وحى تجربته الشخصية ، فكان عدوا لهم أحيانا ، وصديقا لهم أحيانا أخرى ، عندما عاش سقوط الدول والإمارات الإسلامية تحت سنايك خليلهم ، ثم وهو يشاهد هزيمتهم واندحارهم ، ونجده يطلق عليهم ألفاظا مثل شياطين وكفار ، ويطلق على فرسان الداوية ، كلمة أصدقائى ، ويلاحظ " أنهم - لعنهم الله - أكبر الناس إحترارا فى الحرب .. " ا .

بل ونجده يسافر فى مطلع حياته من بلدته شيزر إلى انطاكية التى يحتلها الإفرنج حتى يتعرف على حياتهم ، ويعرف مصدر قوتهم ونقاط ضعفهم .

وتوجد ملاحظات ذكية متفرقة طوال ترجمته الذاتية ، يتأمل نظام الفروسية الذى يتبعونه ، ويقول .. « والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى والمشورة وهم أصحاب القضاء والحكم ..

ويبدى دهشته أن حكمهم لا يستطيع أن ينقضه حتى الملك ذاته ، ويروى التجربة التى عاشها .... « حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس - إحدى الامارات

الصليبية - ، وبيننا وبينهم صلح ، فقلت للملك فولك بن فولك حاكم بيت المقدس هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت صغارها ، وردّها علينا بعد أن أتلّفها .. » ، فطلب الملك من بعض فرسانه بحث هذه القضية، فحكموا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلّف من غنمهم ... » فتوسل إلى ، وثقل على ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم لا يقدر الملك أن يغيّره ولا لينقضه .. »

وفى نفس الوقت يستنكر من ناحية أخرى عدالتهم في معاملة المتهمين ، عند معافيتهم عن طريق إلقائهم في الماء أو المبارزة ، وأرجلهم مصفدة ، والنجاة وحدها تصبح دليل براءتهم ، رغم كونها دليلاً مزيّفاً ، ويقع سيف العقاب لأن الإحتكام لمن يحدد العقوبة وطريقة تنفيذها ، فماذا يبقى بعد موت الضحية ..

قال له ملك الإفرنج مرة .. » وحق ديني لقد فرحت فرحاً عظيماً ، عندما قالوا أنك فارس عظيم ، وما كنت أعتقد أنك فارس .

قلت « يامولاي ، أنا فارس من جنسى وقومى .. »

## ● الأمير والاسكافى ١

ويمضى أسامة قاصداً كل غريب طريف ، ويقول .. » لا يتكلمون إلا بالافرنجى وما ندرى ما يقولون .. !! ، ورغم هذا

يظهر تأثير تلك اللغات فى كتاباته ، فيستخدم كلمات مثل  
البرجاس أى اليورجوازى ، والبرونس أى الأمير ، والداما أى  
السيدة ، ويدهشه تمسكهم بأبناء جلدتهم رغم كل المغريات ،  
ويدلل بالحكاية التالية .. « صار لوالدى عدة من الجوارى من  
سبى الافرنج ، وهم لعنهم الله جنس ملعون ، لا يالفون لغير  
جنسهم ، واختار والدى منهن جارية مليحة شابة ، وقال  
لكهرمانه داره ، أدخلى هذه الحمام ، وأصلحى كسوتها ،  
وأعديها للسفر ، وسيرىها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة  
جعبر - على نهر الفرات - وكتب إليه .. غنمنا من الإفرنج  
غنيمة قد نفذت لك سهما منها ، فوافقته وأعجبته وأخذها  
لنفسه وولدت له ولداً أسماه بدران ، كبر ومات والده ، وتولى  
بدران الإمارة والرعية ، وأمّه الأمرة الناهية ، ورغم ذلك ، تدلت  
بجبل وهربت من القلعة ، ومضت إلى بلدة للإفرنج ، وتزوجت  
بافرنجى إسكافى ، وتخلت عن ابنها وقلعته ! »

ومع صداقاته التى تكونت تكثرت القصص والحكايات ، فها  
هو أحد الأصدقاء من الإفرنج ، يقترح عليه أن يصبح ولده  
مرهف إلى بلاده ليتعلم ، ولنتابعها كما يرويها أسامة ..

فى عسكر الملك فلك فارس محتشم وصل يحج ويعود ،  
فأنس بى وصار ملازماً ، يدعونى أخى ، وبيننا المودة  
والمعاشرة ، فلم عزم العودة إلى بلاده ، ومرهف معى وهو ابن  
أربع عشرة سنه ، قال لى .. يا أخى أنا سائر إلى بلادى ،

وأريدك تتفد معى إبنك ، يبصرالفرسان ويتعلم العقل  
والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل ، فطرق سمعى  
كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن إبنى لو أسر ما بلغ به  
الأسر أكثر من راحة إلى بلاد الإفرنج .

قلت له : وحياتك هذا الذى كان فى نفسى ، ولكن منعنى من  
ذلك أن جدته تحبه ، وما تركته يخرج معى حتى إستحلفتنى أن  
أرده إليها .

سأل : أمك تعيش .. ؟

قلت : نعم .

قال : لا تخالفها . «

ويلحظ تقدم الطب فى الشرق أكثر منه لدى الغرب ، ويروى  
ما يؤكد رأيه يقول .. « طلب صاحب المنيطرة - بلدة شمال  
لبنان تطل على نهر ابراهيم - من عمى طبيبا يداوى مرضى  
من أصحابه ، فأرسل له نكاسيا عربيا يقال له ثابت ، فما  
غاب عشرة أيام حتى عاد .

فقلنا له : ما أسرع ما دويت المرضى .

أجاب : أحضروا فارسا ظهر فى رجله دملة ، وامرأة  
أصابها نشاب ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصاحت  
وملحت ، وحملت المرأة ورطبت مزاجها .

وجارهم طبيب أفرنجى ، فقال لهم : هذا ما يعرف شىء  
يداويهم ، وقال للفارس أيما تحب تعيش برجل واحدة ، أو  
تموت برجلين ؟ قال . أعيش برجل واحدة .

قال الطبيب : إحضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا ،  
وحضر الفارس والفأس ، فحط ساقه على قرية خشب ، وقال  
للفارس إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها ، فضربه  
وما انقطعت ، وضرب ضربة ثانية فمات من ساعته .

ثم نظر للمرأة وقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان قد  
عشقها ، إخلقوا شعرها ، ولما عادت تأكل مأكلم الثوم  
والخردل .

قال : الشيطان قد دخل فى رأسها .

وأخذ موسى وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر  
عظم الرأس ، وحكه بالملح فماتت فى وقتها .  
فسألتهم : هل بقى لى حاجة .. ؟

قالوا . لا .

ولكنه فى وضع آخر يقول .. « وشاهدت من طبهم خلاف  
ذلك . »

ويؤكد مهارتهم فى صناعة الدواء .

## ● أبحث عن المرأة .

ومنذ زمن أسامة بن منقذ وحتى اليوم ، تثير العلاقة بين الرجل والمرأة لدى الإفرنج الرجل الشرقى ، فعندما يتطرق الحديث إلى عادات وتقاليد الإفرنج ، يجد الشرقى فى هذه العلاقة نقطة تمايز جوهرية بين الشرق والغرب .

فأول ما يلفت نظر أسامة ما تتمتع به المرأة عندهم من حرية ، فأفاض فى نقد ذلك ، وهو ذات الموقف الذى اتخذه رفاعة رافع الطهطاوى بعد تسعة قرون عند زيارته لباريس عام ١٨٢٦ .

ووصف رفاعة الفرنسيين بقوله .. « ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. »

وهى ذات كلمات أسامة الذى يقول .. « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة ، يمشى الرجل مع امرأته ويلقاه آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت خلاها مع المتحدث ومضى .. »

ويؤكد رأيه هذا بالعديد من الحكايات ، ويبدى دهشته من أن بعض النسوة قد لبسن الشفوف المطرزة ، وجلسن على الدواوين ، يستمعن إلى أنغام العود والرباب . «



فهل يختلط فى حديثه النفور مع الإعجاب ؟  
ويحكى كيف جاء إفرنجى يوماً ووجد رجلاً فى فراشه مع  
أمرأته .

فسأله : أى شىء أدخلك عند امرأتى ؟  
قال : كنت تعبانا دخلت لأستريح .  
قال : وكيف دخلت إلى فراشى .. ؟  
أجاب : وجدت فراشاً مفروشا نمت فيه .  
قال : والمرأة نائمة معك .  
قال : الفراش لها ، وهل أقدر منعها من فراشها .  
قال الزوج : وحق دينى إن عدت وفعلت ذلك مرة أخرى  
تخاصمنا أنا وأنت «

ويعلق أسامة قائلاً : « وكان هذا كل تفكيره ومبلغ غيرته »  
ويروى قصة غريبة أخرى جرت وقائعها فى حمام المعرة .  
يدخل أحد فرسان الإفرنج إلى الحمام ، ويرى عربياً حليق  
العانة ، ويطلب منه أن يعلمه كيف يحلقها ، وبعد أن علمه طلب  
منه ، ما يؤكد قلبه غيرتهم ، وهو أن يعلم « الداما » أى إمرأته ،  
وأرسل فى طلبها وجاءت إلى الحمام ، واستلقت على ظهرها ،  
حتى علمها ، ورجلها قاعد ينتظر .. ثم شكر العربى على حسن  
صنيعه . !

ويتساءل أسامة معلقا .. « ليس فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا لمن لديه النخوة والانفة .. »

وأخذ ينتقل هذا الموقف من الأجداد للأبناء ، وأصبح المتفرنج ، يتركز فى موقفه من المرأة !

هذه بعض شذرات من سيرة أسامة ، الذى توفى وطويت صفحته فى مساء يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنة ٥٨٤ هـ ، ودفن فى جبل قاسيون فى دمشق بعد حياة حافلة وتوفى فى السنة التالية للعام الذى إسترجع فيه صلاح الدين بيت المقدس ..

ويقوم هذا الفصل من الصراع بينما يتوازن فيه قوة الشرق مع الغرب ، وبعدها إختل التوازن لصالح الغرب ، وعاش الشرق فى غفوة طويلة .

وبقيت سيرة أسامة تبحث عن يقدمها إلى القارئ العربى بأسلوب عصرى ، فهى نموذج صالح لفيلم سينمائى كبير وثرى .

وعندها ستتحول شهادته على عصر بأكمله إلى عمل حى جذاب .

٦

إحراق كاتب

لسان الدين الخطيب

( ٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ )

من القيم الأساسية لارتقاء الانسان وتقدمه ، حرية الفكر  
وحرية التعبير ، وهما اللتان يستعد منهما الكاتب مكانته ،  
ويمكن على أساسهما من إبداء رأيه وطرح فكره ، حتى إذا  
كانت هذه الآراء ليست على هوى البعض أو لا تروق لبعض  
لوائح الرأي العام ..

وساد أوروبا العصور الوسطى الظلام والتخلف ، عندما  
غابت حرية الفكر ، وتعرض أصحاب الرأي لصور شتى من  
الاضطهاد ، ودفع الكثير منهم حياتهم ثمناً لمعتقداتهم ، ولم يكن  
الشرق استثناء في كثير من الأحوال ،

ومأساة الكاتب والشاعر والوزير اللامع لسان الدين  
الخطيب مثال ناطق ، عندما دفع حياته ثمناً لأفكاره ، وقتل  
خنقاً واشعلت فيه الشران ، بعد أن أحرقت مؤلفاته في ميدان  
عام ، واتهم بالالحاد والزندقة وهو المفكر والفيلسوف والطبيب  
والمؤرخ ..

وعادة ما يدفع المفكر ثمن موقفه السياسى ، حتى يكون أمثلة لغيره من الكتاب ، وكأنها دعوة صريحة للمفكرين للانصراف عن الحياة العامة ، وتجنب التصدى للقضايا الحقيقية .

كما تعكس مأساة لسان الدين الخطيب فى أحد جوانبها أزمة العلاقة بين العالم والسلطان ، وأزمة الحياة الفكرية ، فى عصره ، الناتجة من الشقاق والفتن ، ومن تكالب العلماء على الدنيا ، والرضا بالجمود الفكرى ، وتظهر قصته قدم توق الانسان إلى الحرية ، وأن أعظم وأنبل الأعمال والأقوال تلك التى تأتى من أولئك الذين يعملون فى حرية واستقلال .

وأخطر ما تفصح عنه حكايته ، ما يواجه المجتمع عندما تتوحد فيه السلطات وخاصة السلطتين الزمنية والدينية ، مما يضيفى القداسة على تصرفات الحاكم ، ويتحول ما يراه ويصبح الحق كله وماعداه هو الباطل والضلال .

## ● ذروة المأساة

ويساعد على رسم تفاصيل المأساة ، ما تركه لنا لسان الدين الخطيب من ترجمته الذاتية موزعة على مؤلفاته ، وخاصة كتاب « الاحاطة » الذى يتضمن الجزء الرئيسى منها ، وترى خلالها كيف يذهب المفكر ضحية الجهل والتعصب والاكاذيب ، وكيف تمكن أعداؤه من الخلاص منه ! ..

ذروة المأساة .. يهجم الأوغاد والعامّة وعلى رأسهم سليمان بن داود من حاشية بلاط غرناطة ، ويطرقون سجنه ليلاً ، ويزدحمون على حراسه ، مؤيدين بسلطان فاس ورجاله ، ويفتح باب السجن العتيق ، لا لكى يفرج عن رب السيف والقلم ، والذي يملأ اسمه السمع والبصر ، ولكن لكى يكتموا أنفاسه ويقتلوه خنقا ، ولعلمهم خافوا بعدها أن يشهر قلمه ويفضح دوافعهم ، وصغار نفوسهم ، فعادوا فى اليوم التالى ، وقد ملأ الحقد والغل قلوبهم وأخرجوا رفاته من القبر وأشعلوا فيها النيران من جديد ... « فأحترق شعر الرأس ، وأسودت البشرة، ثم أعيد إلى القبر قبل أن تأتى عليه النار » ويكمل ابن خلدون ... « إنه الهالك شهيدا بسعاية أعدائه ، وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها هؤلاء الأعداء ! »

لقد لاحقه بعد فراره من غرناطة رجال السلطان ، واستغلوا الظرف السياسى الطارىء ، بعد أن تربع أحمد بن السلطان أبى العباس عرش المغرب بمساعدة سلطان غرناطة ، وحين وقت قبض الثمن ! فكيف له أن يخرج من أراضى ولى النعم ! »

يفسر الخطيب دوافع رحيله من غرناطة برغبته فى التفرغ للعلم والدرس والابتعاد عن السياسة والأعيابها ، ويفسره

خصومه بالسعى لتوحيد غرناطة مع المغرب حتى يتمكننا معا من صد الغزاة ووقف الهزائم المتلاحقة ..

وأيا كانت دوافعه فى الرحيل ، فهو لا يستحق هذا المصير ، وعقد السلطان أبو العباس مجلسا محاكمة لسان الدين الخطيب ، لكى يعفيه هذا المجلس من المسئولية ، وحشد فيه رجال الدولة ، ورددوا على مسامعه التهم التى سبق أن وجهت إليه ، والمتعلقة بالانحراف الفكرى ، والزندقة والمروق عن الدين والخروج على الشريعة ، واحتجوا عليه بكتابه فى الحب الالهى « روضة التعريف بالحب الشريف » وهو أحد كتب التصوف ، وينقل إلينا المقرئ فى كتابه نفح الطيب جانبا من هذه المحاكمة ، يقول .. « لما قلبت الأيام ظهر المجن لابن الخطيب .. أكثر أعداؤه فى شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربة الاسلام ، بتنقص النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول بالحلول والاتحاد ، والانخراط فى سلك الالحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة فى الاعتقاد ! » وليس لدينا معرفة بما دار فى هذه المحاكمة الصورية ، ويمكن لنا أن نتصور أن كاتبنا قد ألزهم الحجة ، لما عرف عنه من رباطة الجأش وقدرة عالية وثقافة واسعة وتأثير كبير على مستمعيه ، ومن الضروري أنه كاد أن ينجح فى تحويل دفة محاكمته وإلا ما عذب بعد هذه الجلسة على الملأ ، وما أرسل مخفورا إلى السجن ، وما اقتحم عليه الغوغاء محبسه بليل ، وكتموا

أنفاسه ، ولم ينتظروا أن تقوم السلطات الرسمية بتنفيذ حكمها ..

وذكر لنا ابن خلدون .. « أن الأقوال التي قيلت فيه أثارت من حوله عاصفة من السخط .. » !!

ويعلق عبدالله عنان الذى حقق كتاب « الاحاطة » وكشف النقاب عن المفقود من تراثه ، قائلا .. « حاولنا العثور على شىء مما ذكر يصلح سنداً للاتهام ، ولم نجد شيئاً من ذلك ، بل على العكس ، رأينا روضة يانعة حافلة بمزيج رائع من الآراء والنظريات ، التي تشع بالايمان والخشوع ، وتشهد لصاحبها بسلامة العقيدة ، وصدق الطوية ، والبعد التام عن كل ما يمكن أن يوسم صاحبها بالخروج أو الالحاد .. »

ولعل ذلك هو الذى دفع خصومه ، قبل مصرعه ، إلى إحراق دليل براءته ، وموضع تمكنه ومحل امتيازته ، فأحرقوا مؤلفاته فى أحد ميادين غرناطة .. « بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء .. » !!

وكان أغرب اتهام وجه إليه ، وهو المؤرخ ، أن تراجع الأحياء والأموات إنما هى إحدى صور الغيبة المحرمة ، وإذا أخذ برأى المحكمة ، لكان عليها أن تلغى علم التاريخ ، من الطبرى وحتى ابن خلدون ، فماذا بقى للفكر الانسانى بعد إلغاء الفلسفة والتاريخ ؟!



## ● الهزائم والفتن

ولنبداً القصة من أولها ، بعد أن تابعتنا ذروة المأساة التي تنال من حرية الفكر وحرية التعبير .. عاش لسان الدين الخطيب فى عصر مضطرب ، تتوالى فيه الهزائم والفتن ، وهو ذات العصر الذى عانى فيه ابن خلدون ، وذات الظروف التى قرر فيها الرحيل إلى القاهرة والانصراف إلى المعرفة ، وذات العصر الذى دفع بابن بطوطة إلى آخر العالم ..

يقدم ابن خلدون هذا العصر بصورة شائقة وعجيبة ، فغرناطة البلدة الوحيدة التى نجت من حركة الاسترداد ، وهى بلدة صغيرة تقع وسط ثلاث نول معادية تفوقها قوة هى قشتالة وأرجوان والبرتغال ، مما جعلها فى حالة استنفار دائم وقاتل مستمر ، ويشير الخطيب إلى ذلك .. « الصبيان تتدرب على السلاح ، وتتعلم الثقافة ، كما يعلم القرآن فى الألواح .. »

ويأتى هذا العصر بعد أن دام حكم الاسلام فى الأندلس حوالى ثمانية قرون من سنة ٧١١ م حتى سنة ١٤٩٢ م ، وعاش كاتبنا فى غرناطة آخر هذا العصر وحقا ما يقوله ابن خلدون « لكل أمة ميقات ، ولكل دولة عهد نمو وازدهار ثم ذبول وهرم وانحلال ، فبين سنة ١٢٣٨ م و ١٢٦٠ م ، فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة ، وجاميم الأول ملك أرجوان مدن بلنسية وقرطبة واشبيلية ومرسية ، وتراجع العرب وتزايدت مشاعر

الفشل والاحباط وفقدان التوازن ، والذي كان كاتبنا ضحية له وشاهد عيان ! ..

ويصف شاهد العيان الخطيب أهل غرناطة ... « الغناء بمدينتهم فاش حتى فى الدكاكين التى تجمع كثيراً من الأحداث ، وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، إلا أن الطول ينذر فيهن وقد بلغن من التفنن فى الزينة والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر .. »

وفى موضع آخر يعبر عن عصره بعدم الثقة فى إخلاص العامة وحسن ولائها ووجوب الحيلة والحذر من حركاتها ، ويصفهم بالدهماء قتلة الأنبياء وعبداء الأهواء - وكأنه يتنبأ بمصيره - فقد قام الشعب فى أيامه بأكثر من تمرد غيرت مصير السلطان وبدلت الملك ، وكان الخطيب رجل البلاد القوى ، يوجهها ويسهر على مصيرها ، وكانت سياسته كما سجلها هى .. « مداراة عدو تكالب على البلاد ، وسياسة بلاد قد صم عن الملام ، وتعدى حدود النهى والأحلام .. »

### ● الكاتب لسان الدين

هذا هو العصر الذى شهد ظهور الخطيب ، فقد ولد ببليدة لوشه غربى غرناطة سنة ١٣١٢ م - ٧١٣ هـ ، وأعطى لقب

لسان الدين تقديرا وتكبيرا ، والوزير هو رئيس الوزراء بتعبير هذه الأيام ، ينوب عن السلطان ويهيمن على شئون الدولة ، ويشرف على الكتابة وديوان الانشاء ، وذو الوزارتين أى الذى يجمع بين السيف والقلم ، وعرف بما يتمتع به من قوة الاقناع والتأثير الشخصى ، فهو أحد النماذج العلمية والادبية الباهرة والذى كان مزيجا من مواهب متعددة ، واختلط عمله كرجل دولة ووزير وسياسى بصورته كمفكر وكاتب وشاعر ، فهو رجل دولة بالنهار وكاتب ومفكر بالليل ، مما أعطى خصومه وسيلة الخلاص منه !

ويصف لنا الخطيب فى سيرته الذاتية مركزه فى الوزارة وما أعطاه السلطان من ثقة ... « قلدى السلطان سره ولم يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسنيه ، وأتمننى على صوان حضرته ، وبیت ماله ، وسجوف حرمة ، ومعل امتناعه .. »

ويمضى شارحا الأعمال التى كان يؤديها فى عهد السلطان محمد الخامس ... « الوقوف بين يدى السلطان فى المجالس العامة ، وإيصال الرقاع وفصل الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والانشاء ، والمواكلة والمجالسة ، جامعا بين خدمة العلم ولقب الوزارة ، منفردا بسر السلطان .... وبلغت الخطوة منتهاها ، والدرجة التى تؤمل

بأبواب الملوك إلى الأماد أقصاها ، إلى أن وقع الكياد على الدولة ... ولما هلك السلطان بعنى أبو الحجاج ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى فى أخوة المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ثم حملة أهل الشحنة من أعوان ثورته ، على القبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى .. »

وهو يشير هنا إلى الانقلاب الذى فقد خلاله السلطان محمد ملكه عام ١٣٥٩ م ، ونفى إلى المغرب ، وتولى أخوه اسماعيل مكانه ، ولحق الوزير سلطانه المخلوع ، واستمر النفى حوالى ثلاث سنوات عاد بعدها السلطان إلى عرشه بعد حروب وخطوب .

## ● سجنه الأول

ونعود إلى رواية الخطيب الذى يحكى ما وقع له بعد الانقلاب يقول .. « أعتقلت بحال نرفيه ، بعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الاغلاق ، وأبرد إلى ما نأى ، فأستوصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال - يقصد أملاكه ... ويضيف .. » وخرجت - من الأندلس - لا أملك إلا نفسى وفضل ربى ، ملطوفا بى باستصحاب أهلى وولدى .. » وقضى فترة النفى

هذه فى المغرب ، وإذا كانت سيرته الذاتية موزعة على كتبه  
والجزء الرئيسى منها فى كتاب « الاحاطة » إلا أنه يصف  
المغرب وحياة أهلها ورحلاته فى ربوعها فى كتاب « نفاضة  
الجراب فى علالة الاغتراب » وهو وصف فيه حيوية دافقة  
وملاحظة دقيقة ويتسم كله بروح الدعابة .

يروى مثلاً صعوده إلى أحد جبال الأطلس ، جبل هنتانة ،  
وينسب إلى قبيلة هنتانة التى تسكنه أنها فرع من قبائل  
حموده .

ويصف معيشة شيوخ قبيلة هنتانة بحسن استقبالهم له ،  
ويصف صنوف الطعام التى قدموها له .. فرحب وأسهل ،  
وارتاح واغتبط ، وألف وقدم ، وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه  
المستندة إلى سفح الطور .. محترم عند سيدة الأحامرة الثلاثة  
اللحم والمسك والخمر !

## ● المحنة الثانية

وتعرض بعد محنته الأولى ، وعودته مع السلطان إلى محنة  
أشد ، فهل استفاد من محنته الأولى ، أم مسته المرارة ؟ وهل  
اكسبته المزيد من الخبرة .. ؟ واستوعب الدرس القاسى ..  
وهل يستعين على الدهر بالتجارب ؟ . هذا ما يجيب عليه  
الفصل الثانى من حياته .

فقد تولى منصب الوزير من جديد ، ورد إليه السلطان  
سائر املاكه .. » التي خلصت بالشرع موجباتها ، ووضحت  
فى سبيل الاستحقاق بياناتها « بل وأعفى من الضرائب عليها  
، وكانت ولايته هذه المرة مطلقة يستأثر فيها بالنفوذ ويتمتع  
بثقة السلطان ، ويصف هذه الفترة ، بأنه « سار مراعيًا ربه ،  
حذرا من النقد ، ووجه عنايته إلى « روم الثغور » وتتمير  
الجباية وانصاف الحماة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، وإصلاح  
بواطن الخاصة والعامة ، واستعنت بالله ، وعاملت وجهه ، من  
غير تلبس بجراية ، ولا تشبث بولاية ، مقتصرًا على الكفاية  
مشققًا من الغرور ، هاجر الزخرف ، صادعا بالحق فى  
أسواق الباطل ، وصرفت الفكر لبناء الزاوية والمدرسة  
والترية .. »

وبدأت مؤامرات القصور ، وتتابع الصراعات والفتن ،  
ويشهد على هذه المرحلة ابن خلدون ويتهم الخطيب ، أنه جنح  
هذه المرة إلى الاستئثار بالسلطة والانفراد بالحل والعقد ،  
ودفع إلى تدبير المملكة ، وخط بنيه بندمانه وأهل خلوته ،  
وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه  
الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ،  
فتوافقوا على السعاية فيه ..

وظهر من يتنافس الخطيب على الحضوة والسلطة ، قائد  
الجيش عثمان بن أبى يحيى ، الذى ساهم فى استرداد

السلطان للملكه ، واحتدمت المنافسة ، وكسب الخطيب ، ورغم ذلك يذكر الخطيب .. « لم أعدم الاستهداف للشعور ، والاستغراض للمحذور ، والنظر الشذر المنبعث من خزر العيون .. » وانتهى الأمر بأن زهد فى المنصب ورغب فى الافلات من أسره .. « لما أشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة والتهيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان ، فى استتجاز وعده برحلة الحج ، ورغبت فى تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة .. » وكان فى مقدمة خصومه رجالان ، أحدهما تلميذه ومعاونه أبو عبدالله بن زمرك ، وقاضى القضاة أبو الحسن النباهى .

ويروى الخطيب إحدى حلقات القصة .. « وثاب لى النظر بإزماع الفرار ، ومصانعة السلطان بالتأنى له ، والانحطاط فى هواه ، وشرعت فى عقد السلم مع العدو لسنين ، ورتبت الأمر ترتيب الأبناء للبنين ، وقلت أحج نفسى وأقضى فرضى ، وأشغل الناس بغيرى ، فاقترضت من المولى ابن فارس عبد العزيز - سلطان المغرب - وقد اتصل بى فضل دولته ، وطهارة نشأته ، عهدا بخطه ، ضمن لى المشاركة فى أعراضى من إقامة .. »

## ● الفرار ١

وخرج الخطيب من غرنامة وكأنه ينفد الذعور الغربية في كوكبة من الفرسان ، واتجه إلى جنوب حتى دخل جبل طارق الذي يتبع سلطان المغرب ، وأبرز إلى فاتها عهد السلطان عبد العزيز ، فرحب به وجهز السفن لنقله إلى سبته ، واستقبل فيها بحفاوة كبيرة.. « فاهزت له الدواة ، وأركب السلطان خاصته لنقله ، وأحله بمجلسه محل الأمن والغبطة ، ومن دولته مكان الشرف والعزة » كما علق ابن خلدون على وصول الخطيب .

ويعود الخطيب ، ويضيف .. « فارقت الأهل والمال والولد ، والجاه الذي بلغ الأبد ، لا لدينا فانية .. ولا لخدمة نستأنفها عوضاً تلك .. ولا لفرار أمام جنائية ، ولا لفنكة في مال جبابرة ، ولا لتقويت معقل لعدو الملة ، ولا لسفك دم بطلبني بتتبعه ، ولا لخيانة في أهل ، ولا لسعى على ملك . نبرأ إلى الله من ذلك كله ، إنما نلخص قصدي في الفرار إلى الراحة ، والهدوء من حمل الكلفة ، والاشتغال بما يعني ، لكن في نال العافية ، وتحت سحاب النعمة ، وذمة الحرمة ، ندال الرهب ، على ما في القلوب ، إن كنت قد شأبني في ذلك شائبة ، أن لا يمتعني بالبقية ، ولا بمن على بحسن الخامة . »

وتهز غرنامة لفراره ، وبحكم على لسان الدين الخطيب بالموت ، وبالحق بلاط الخطيب في فاس ، ورسلا القاضي



رسالة إلى السلطان عبد العزيز ، يبلغه حكم الموت ، ويرد سلطان فاس بقوله.. لماذا إذا كان زنديقا لم تنفذوا فيه الحكم وقد كان لديكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ بل وزاد السلطان فى اكرام ورعاية الخطيب، وكرر سلطان غرناطة المحاولة ، وأرسل هدية فخمة من الأمتعة النفيسة والذخائر الأندلسية ، والبغال الفارهة ، والعلوج والجوارى ، ويصف الهدية ابن خلدون بأنه لم يسمع بمثلا .. والتمس الرسل تسليم الخطيب ، ويأبى السلطان مرة أخرى ، ويعكف الخطيب على البحث والتأليف فى دعة ، حتى توفى السلطان عبد العزيز ، والذى كان إيذانا بامكان تحقيق غرناطة هدفها .. وذكر الخطيب .. « ثم دك الجبل العاصم من الطوفان والممسك للأرض عند الرجفان ، فكان موت المولى الذى أوينا إليه ، وعولنا عليه ، ووثقنا بوعدده ، وتمسكنا بعهدده . » وأدرك الخطيب أن النهاية اقتربت ، وسرعان ما أودع لسان الدين الخطيب السجن ، وبعث ابن الأحمر تلميذ الخطيب وخلفه فى الوزارة عبد الله بن زمرك، لكى يتولى المهمة ويضمن هلاكه !

## ● العالم والسلطان

ويتغير الميزان بين العالم والسلطان عندما تتردى العلاقات بين العلماء ويدس بعضهم البعض الآخر ، وينتهى بهم الحال إلى ضعفهم جميعا ، وتقلص دورهم ، وتدهور مكانتهم .

وهذا ما تؤكد مأساة لسان الدين الخطيب ، فأدوات القضاء عليه ، ومن نسج خيوط المؤامرة التي أودت بحياته ، أمسك بأطرافها غيره من العلماء .

ونلاحظ بداية ، تدهور العلاقات التي كانت قائمة بين ابن خلدون وابن الخطيب أكبر علماء عصرهما ، بعد أن ارتبط الصديقان بعلاقات عميقة ، فهما متشابهان وليهما اهتمامات مشتركة رغم فارق السن بينهما ، فبدأت العلاقة بينهما وابن خلدون في شرح الشباب وابن الخطيب في طور الكهولة ، يتجاوز فارق العمر بينهما العشرين ربيعا . يخاطب ابن خلدون صديقه بقوله .. « سيدى مجدا وعلا ، ومحل والدى برا وحنوا » ويرد ابن الخطيب .. « سيدى ولى وأخى ومحل ولى .. »

يلتقى العلمان لأول مرة فى فاس ، عندما كان الخطيب لاجئا إليها بعد الانقلاب السياسى الذى أطاح به ، وعبد الرحمن بن خلدون من كبار رجال الدولة فى فاس ، ومنذ اللقاء الأول ، وهما يتبادلان المواقع ، وانتهى الأمر بنجاح ابن خلدون من الرحيل ، إلى القاهرة ، وحجز ابن الخطيب ، وكان ابن الخطيب يتفوق على ابن خلدون فى بيانه ويتفوق عليه ابن خلدون فى حسه التاريخى .

وتمضى الأيام وتزداد العلاقات بينهما توثقا ، ويعود الخطيب ظافرا إلى بلاده ، ويتبادلان الرسائل ، وعندما يتعرض ابن خلدون فى فاس لمحنة مشابهة ويفقد حظوته

ونفوذه فى بلاطها ، يرحل إلى الأندلس ، ويستقبله ابن  
الخطيب ويحتفى به ، ويبالغ السلطان فى الترحيب به ، معرفة  
لقدره ، ويرسله فى سفارة إلى ملك قتشالة، ولكنه لم يلبث أن  
شعر بانقباض السلطان عنه .. « ثم لم يلبث الأعداء وأهل  
السعيات أن خيلوا للوزير ابن الخطيب ملابستى ، واشتماله  
على ، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر ، وشممت منه رائحة  
الانقباض .. ولم يبق محل لاطالة الإقامة ولا مناص من  
الرحيل » !

ومن جديد يدور الزمن دورته ، ويعود ابن خلدون لسابق  
نفوذه ، ويتآكل نفوذ لسان الدين الخطيب ، ويتعرض للخطر ،  
ويكتب لابن خلدون ، ويعجز ابن خلدون عن تقديم العون له ،  
ولكنه يسجل بقلمه مأساته وينقل قصيدة حزينة أنشدها  
الخطيب قبل مصرعه ، تقول كلماتها :

وكنا عظاما فصرنا عظاما  
وكنا نقوت فما نحن نقوت  
وكنا شمس سماء العلا  
غرين فتاحت عليها البيوت  
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب  
وفات ومن ذا الذى لا يفوت  
فمن كان يفرح منهم له  
فقل يفرح اليوم من لا يموت

وتلقى لسان الدين الخطيب الطعنات القاتلة من كل من الوزير ابن زمرك وقاضى القضاة النباهى ، وهما رجلان جمعت بينه وبينهما الصلات ، حتى لقد ترجم لهما ابن الخطيب فى كتابه « الاحاطة » ويصف ابن زمرك بأنه من مفاخر غرناطة ، وينوه بذكائه ، أما النباهى فكان للخطيب الفضل فى توليه هذا المنصب عندما سعى إلى تعيينه قاضيا وخطيبا للمسجد الجامع وأسبغ عليه الثناء ، وجميل الصفات وأحسنها ، بل وظفر من جده بأكرم النعوت والخلال ، وبإدله النباهى المدائح ، فقد وصف لسان الدين الخطيب بأنه الآية البالغة ، وقد طمست الأعلام والعزة الواضحة ، وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة بذهب الكرام وهو بالنسبة إليه الركن الذى ما زلت أميل على جوانبه ، ولا نزيد الأيام إلا بحسيرة فى الاقرار بفضله والاعتداد به !

والنباهى هو الذى أعد وثيقة الاتهام ضد الخطيب ، وهو الكاتب الذى كثيرا ما يجد الطغاة أمثاله لكى يفهم بالأدوار القذرة ، وأصبح كلام الخطيب عنده .. « حشوه ككثير من كلام إقذاع وفحش بعيد عن الحشمة والمبا » « وأن فرار الخطيب هو غدر بسلاطانه ، ووجه حديثه لابن الخطيب .. « مددتم إلى التمتع بغيرها أعينكم ، فلم يكن فرارك من الاندلس إلى الله

بالتوبة المكمل والاستغفار مع الانقطاع فى أحد المواطن  
المكرمة وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس .

... وتبين أنه لغير وجه الله كانت نية هجرته .. !! «  
وبضيف .. « وأولا أنكم سافرنم قبل نقلص ظل السلطة عنكم ،  
لكانت الامة المسلمة ، امتعاضا لدينها ودينها ، قد برزت بهذه  
الجهات لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من  
خدام الدول ، ما صدر منكم ، من العبث بالابشار والأموال ،  
وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ،  
واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال .. »

ويصل النباهى فى ختام رسالته ، بعد تحويله الموقف  
السياسى المعارض إلى انحراف أخلاقى ، إلى التنديد بنشأة  
الخطيب المتواضعة ، ووضاعة أصله ، وحادثة عهد عائلته فى  
المال والنعمة ، ويكفى أن أستاذ ابن الجياب أنف من  
مصاهرتة . وإن اعتداده بملأ الدنيا من ثراء وطعام ولباس ،  
إنما هى خسة وصغار . »

ويصفه لسان الدين الخطيب وهو يسرد عليه بالقرم  
الدميم « الجعسوس » ويسخر منه قائلا . « النباهى الشيخ  
القاضى اليوم بغرناطة .. أطروفة الدنيا وأضحوكتها شكلا  
وعلما وخلقاً .. » ثم وضع رسالة خاصة فى هجوه سماها «

خلع الرسن فى التعريف بأحوال أبى الحسن ، يصور فيها خصمه فى سخرية وتندر فهو « فى الطرف والاستطراف يسلى النكالى » !

فهل يمكن أن يترك هذا القلم طليقا ؟

ويصف ابن زمرك بقوله .. « وأن نفذ القدر المكتوب ، فأننا المعتوب ، إذ إصطنعته ودوجته ، ولغيرى ما أحوجته ، فاتبع الطريقة ، وغاص بلجتها فاستخرج الدرر الغريقة ، فهو اليوم صدر العصبية ، ونير تلك النصبة ، وآدابه مستحيلة ، ومحاضرتة خميلة ، وخلقه لولا الخبث والعدر جميلة ، ينظم وينثر ، وعلى القبور يعثر ، وأكثر أجادته فى القصائد التى تطول ، ويلوى بدينها الطبع المطول .. »

وذهب لسان الدين الخطيب شهيدا للكلمة ، وأثبت أن على الكاتب أن يبدع بشجاعة ، ويشارك فى الحياة العامة وأنه لا يستطيع الكاتب أن يقدم شيكا على بياض لآى كان ، فكثيرا ما تكون جسارة الكاتب أن يرفع صوته ضد التيار ، وأن يطير فى غير سربه ، وأن يعطى ظهره لشبكات المصالح والعلاقات العشائرية ..

فإذا كان من حق المثقف أن يخطئ ، فليس من حقه أن يدافع عن أراء متناقضة فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة .

# ٧

التعريف بابن خلدون

ورحلته شرقاً وغرباً

( ٧٣٢ هـ - ٨٠٨ هـ )

لا يتناول هذا الكتاب ، آراء وأفكار العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، الذى قدم لأول مرة علماً جديداً أطلق عليه فيما بعد « علم الاجتماع » ، وإنما بنناول سيرته الذاتية التى سجلها فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » .. عندما استعرض تجربته التى عاشها ، وملامح عصره خلال القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) .

وكما كان رائداً وبارعاً كـ « مؤرخ و كاتب فى علم الاجتماع » ، كان رائداً فى فن السيرة الذاتية ، رغم أن كتاب « التعريف » أقل شهرة من « المقدمة » .

وتكاد تكون سيرته الذاتية أهم سيرة فى التراث العربى .

وتميزت قصة حياة ابن خلدون بالصدق والصراحة حتى نجده يتناول بعض الأمور التى يحرص الناس عادة على اخفائها ، مثل ما دار فى لقاءه بالغازى تيمور لك ، وهنا نراه يقترب من فن الاعترافات الذى يغلب فيه الحرص على تقديم العبرة أكثر من الدفاع عن الذات ، وتقتصر سيرته فى أغلب صفحاتها على الحوادث العامة غير الشخصية ، ولا تقدم الكثير من حياته اليومية أو الخاصة ، كتبها من يدعو الى اعمال العقل ، واستخدام المنطق ، والبحث عن أسباب الوقائع والأحداث ، كما عنى بالأخبار والمراسلات بينه وبين الامراء والعلماء ، ووصف بدقة أحوال بعض المجتمعات ، مثل تصويره الدقيق لحالة الفساد التى كانت تسود شؤون القضاة . عندما



عمل قاضيا فى القاهرة ، ويسجل طريقة تبادل الهدايا بين الملوك والامراء ، ونجده لا يكاد يتعرض لمشاعره وحالاته العاطفية . ولا يتناول تلك التفاصيل العادية التى تتألف منها حياته ، وحياة كل فرد مهما كان شأنه ، ولم تتحكم عواطفه فيما خطت يده ، يتناول مثلا تلك الفاجعة المتعلقة بهلاك زوجته وأولاده فى ثغر الاسكندرية ، فيغلب عنده الموضوعى الذاتى ..

## ● حياة صاحبة

ويقدم لنا فى سيرته حياة حافلة بالحركة ، صاحبة ، مضطربة ، فياضة بالأحداث والمغامرات ، والتقلبات السياسية ، يبحث ابن خلدون دائما عن الآفاق الجديدة والتجربة العميقة ، ينتقل بين ربوع المغرب والمشرق وبلاد الأندلس .

يعيش طفلا مرفها ، وصبياً طموحاً موهوباً ، وشاباً عنيداً وعالمًا كبيراً وصعلوكا ووزيراً ، وقاضياً وسجيناً .

يذكر فى التعريف : « أما نشأته ، فإننى ولدت فى تونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة » أى ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م ، وهو سليل أسرة عربية عريقة ، هاجرت الى الأندلس ، وكان أحد أجداده كريب بن خلدون من زعماء ثورات اشبيلية ، ولقى مصرعه فى تلك الثورة وعندها انتقلت الأسرة الى المغرب ، واحتلت مناصب هامة ، ولم يخل تاريخها من ثوار

ومغامرين وعلماء ، تضم عائلته دائماً رجال دولة بارزين ،  
وعلماء وشعراء موهوبين ، فالجد الثاني لابن خلدون ترأس  
الوزارة فى تونس ، ومات مقتولاً فى إحدى الثورات ، وتولى  
جده الوزارة أيضاً .. وأما والده فقد أثر حياة العلماء ، يدفع  
اولاده الى التردد على مجالس العلماء .. « تعلمت صناعة  
العربية على والدى ، وكان على ولده عبد الرحمن أن يحفظ  
القرآن الكريم ، ولم يبلغ الحلم ، وأبدى شغفاً بالمعرفة فى  
وقت مبكر ، ومازال المسجد الذى تعلم وحفظ فيه القرآن  
معروفاً فى تونس باسم مسجد القبة .. »

وعندما بلغ عبد الرحمن الثامنة عشرة من عمره عصفت به  
الأحداث مع هجوم الطاعون سنة ٧٤٩ هـ ، وانهار كل شىء  
مات أبوه وماتت أمه ، ومات أغلب من يتلقى عليهم العلم من  
شيوخه ، وهاجر من تبقى منهم الى المغرب الأقصى هرباً من  
برائن المرض فعجز عن متابعة دراسته وتغير مجرى حياته ..  
يذكر : « لم أزل منذ نشأت ، وناهرت ، مكباً على تحصيل  
العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم  
والكتابة الى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب بالأعيان  
والصدور ، وجميع المشيخة ، وهلك والداى .. »

ولا يتحرر فى سيرة الدائى تبدأ من التمرد ولا من البحث  
الدائب عن الآفاق الجديدة ..

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

## ● عصر ابن خلدون

وقبل المضى معه فى وقائع حياته ، نتوقف عند ملامح عصره ، تعرض العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر الى نكسة فى تاريخ العرب السياسى ، وعاش بين المطرقة والسندان ، يواجه الزحف الصليبي على جناحه الغربى فى الأندلس والشام ، وزحف التتار على جناحه الشرقى ، وكان بالنسبة لابن خلدون عصر قلق وتحذ .

ولكنه تجاوز محنة عصره ، وأبدع أهم ما كتب معالجا مسألة العمران والنهضة .

أما ثقافة هذا العصر ، فيلاحظ أنها لم تكن مقصورة على ثقافة النقل .. بل تتخطاها الى أعمال العقل ، وترتبط بتطور العلوم ، وبالبناء السياسى والاجتماعى ، فازدهرت خلالها العلوم الطبيعية وخاصة الطب والرياضة والفلك ، ويعيش العالم الاسلامى وحدة ثقافية وفكرية ، ويذكر لنا كتاب التعريف أن ابن خلدون درس مؤلفات ابن سينا وفخر الدين الرازى ، ونصير الدين الطوسى ، والفيلسوف العربى ابن رشد ، ومن أهم أساتذته أبو عبدالله محمد ابن ابراهيم الأبلى ، الذى حاز : « المعرفة الشاملة ، والعلوم العقلية والنقلية » والتى تشمل المنطق والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والموسيقى ، عندما يذكر الكتب التى أطلع عليها يفرد جانباً هاماً لكتاب الأغانى « جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم ،

وأيامهم ، ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت  
التي اختارها المغنون للرشييد - ويضيف ابن خلدون - ولعمري  
انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلقت لهم فى  
كل فن من فنون الشعر ، والتاريخ ، والغناء ، وسائر الأحوال  
.. ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلم وهو الغاية التي يسمو  
اليها كل أديب »

لذلك لم يكن غريباً أن يتميز أسلوب ابن خلدون بالدقة  
والتحديد، والسهولة ، والوضوح ، فأعاد للأسلوب العربى  
رونقه، ويذكر فى كتابه التعريف : « كان أكثر الرسائل يصور  
بالكلام المرسل .. وانفردت بأسلوب كان مستغرباً عندهم بين  
أهل الصنعة » .

### ● مرتع شباب ابن خلدون

وبقى المسرح الذى شاهد رحلة حياته الشاقة ..

قامت فى المغرب على أنقاض دولة الموحدين ، ثلاث دول ،  
توزعت بين التل والسهل والصحراء ، وأطلق ابن خلدون على  
الـ « موطن البقر » ، والسهل ، « موطن الشاة » ، والصحراء  
« موطن الجمل » .

أفريقيا - تونس اليوم - أول قطر انتزع من دولة  
الموحدين، قامت به الدولة الحفصية والتي كانت تمتد بين مدينة

تونس وخليج قابس شرقاً ، والمسيلة غرباً ، وتضم مدناً تاريخية مثل القيروان والمهدية ، وقسنطينة وبجاية .

وفى المغرب الأوسط .. قامت دولة أخرى هى امارة تلمسان التى استطاع بنو عبد الواد اقامتها على يد يغمساس بن زيان ، والتى يقع أغلبها فى جزائر اليوم .

وفى فاس المغرب الأقصى قامت دولة المرينيين والتى تبدأ من وجدة ووداى ملويه حتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن شاطئ البحر الأبيض شمالاً حتى بلاد السوس جنوباً .

وكانت دولة بنى مرين هى أقوى الدول . فاستطاع السلطان ابن الحسن أن يزحف شرقاً ويستولى سنة ٧٣٣ هـ على تلمسان وسائر المغرب الأوسط الذى كان بأيدي عبد الواد ، ثم استولى سنة ٧٤٨ هـ على أفريقيا ( تونس ) وانتزعها من يد بنى حفص ، واسترد من جديد ملك بنى حفص واستوزر أبا محمد بن بارفراكين والذى فى عهده تولى ابن خلدون أول عمل وهو « كتابه العلامة » والذى يوضح لنا فى التعريف بقوله « وضع الحمد لله ، والشكر لله بالقلم الغليظ ، بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم » .

وهكذا كانت دول المغرب العربى امارات متنازعة ، وحكاما ضعفاء ، ونظاما قبليا حاكما ، تقع بينها الحروب ، ولا تستقر دولها طويلا ، ولا يتجاوز بقاء أمرائها بضع سنين أو بضعة شهور .

وكان على ابن خلدون أن يشق طريقه في ظل هذه الظروف، وأن يحاول استعادة مركزه داخل تلك التقلبات والمنازعات والأزمات السياسية .

## ● طغيان الشباب

ما الذى يرويه ابن خلدون خلال فتوته وشبابه ؟ ..  
لا يمكن أن نفحص معه فى بحر المنازعات المحلية بكل تفاصيلها ، ونكتفى بالتوقف عند أبرز أحداث تلك الفترة ،  
والتي ساهمت فى تكوينه كمفكر فذ .

ساهمت بوضوح فترة عمله مع الأمراء والسلاطين فى التعرف على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة، فهو يحضر مجالس الحكام والعلماء ، ويشارك فى الأحداث بما يملكه من ملاحظة ثاقبة وعقل نافذ ، وساعده ذلك على أن يمزج العلم بالواقع ، والأفكار بالوقائع ، وأن يبيلور أفكاره ومشاهداته فيما يسمى فن الحكم وعلم السياسة .

بدأ حياته السياسية بعد تعيينه فى « قلم الكتاب » استجابة للاح أخيه الأكبر ، ثم أصبح كبير الامناء بالديوان فى تونس ، وتزوج خلال هذه الفترة من ابنة قائد جيش الحفصيين محمد ابن الحكم .

ورحل الى فاس هربا من الاضطرابات التى شهدتها أفريقيا ، والتحق فى بلاط السلطان أبو عنان .. يذكر : « على

كره منى ، أن كنت لم أعهد مثله لسلفى ، وعكفت على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخة من أهل المغرب والأندلس .. وسرعان ما تولى الحجابة ، أى الأمانة العامة بلغة هذه الأيام ، وأخذ يشارك فى مجالس السلطان ويساهم فيما يدور فيها من مناظرات علمية .

وجذبه واستغرقت الدسائس السياسية ومؤامرات القصور وأخذ يترك أميرا للالتحاق بأخر أكثر قوة ، لعله عن طريقه يحصل على امكانيات أكبر وأوسع وأن يبلغ أفاقاً أرحب ، فنراه يترك عاهل تونس ويلتحق بسلطان فاس ، وينتهى به الأمر الى السجن الذى يمضى فيه واحدا وعشرين شهراً ، ولا يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبو عنان ، ويبدأ بعدها دوره البارز كرجل دولة ، يتولى أعلى المناصب فى الدولة المارينية ، ويعيش فى ظل نفوذ صديقه عمر بن عبد الله ، ويتولى وظيفة كاتب السر والانشاء ، ويتولى « خطة المظالم » أى القضاء الذى يصفه بقوله : « هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ، ونصفه القضاء وتحتاج الى علو يد ، وعظيم رهبة ، تقنع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى »

وخلال كل هذه التقلبات لا يكف عن الدرس والقراءة ، فكان يستغل كل الفرص المتاحة للاطلاع على خزائن الكتب الخاصة فى فاس وتلمسان وتونس وبجاية وغرناطة ..

ولكنه يحكى فى كتابه ، عن طغيان الشباب وطموحه ، يقول : « كنت أسمو بطغيان الشباب الى أرفع مما كنت فيه » .

## ● حرية الفكر

ونتعرف فى سيرته الذاتية على واقعة زلزلة كيانه ترتبط بحرية الفكر وأزمة المثقف فى عصر ابن خلدون وهى الفجيرة المساوية التى حلت بصديقه لسان الدين الخطيب ، ولا شك أن مأساة صديقه تركت أكبر الأثر على حياته كمفكر يعمل بالسياسة .

ارتبط الصديقان بعلاقات عميقة ، واهتمامات مشتركة رغم فارق السن بينهما ، فعبد الرحمن فى شرح الشباب ولسان الدين فى طور الكهولة ، يتجاوز فارق العمر بينهما العشرين عاماً .

دفع لسان الدين الخطيب حياته ثمناً للمنازعات السياسية وهو المفكر والشاعر والفيلسوف والكاتب والمؤرخ - كما ذكرت - . وقدمت مأساته أمثلة للمفكرين والكتاب ، وكأن مأساة ابن الخطيب دعوة لهم جميعاً للانسحاب من الحياة العامة ، والاحتماء بالأبراج العاجية ، وتجنب التصدى للقضايا الحقيقية والاكتفاء بتناول المسائل الهامشية .



التقى ابن خلدون وابن الخطيب لأول مرة فى فاس ، وكان هذا اللقاء حدثاً هاماً فى حياة كل منهما ، وقتها كان ابن خلدون من كبار رجال الدولة فى فاس ، وكان ابن الخطيب لاجئاً اليها من غرناطة بعد أحد الانقلابات السياسية .

ومنذ هذا اللقاء الأول ، وهما يتبادلان المواقع ويحتمى كل منهما بالآخر .. وسجل كل منهما سيرته الذاتية فى كتابيهما « الاحاطة » و « التعريف » ويحرص كل منهما على تسجيل تجربته للأجيال المتعاقبة فى ذلك العصر المضطرب .

### ● وترجم كل منهما حياة صاحبه

يذكر ابن خلدون فى ترجمته عن ابن الخطيب .. « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملاً الدولة بمدائحه انتشرت فى الآفاق قدماه » .. ويسلم بأنه لا يقدر على مساجلة .. « ابن الخطيب فى الترسل اذ لم يكن شأؤه يلحق فى ذلك » وهو عنده .. « امام النثر والنظم فى الملة الاسلامية غير مدافع » ..

ويشيد ابن الخطيب بدوره بصفات ابن خلدون ومواهبه ومقدرته العلمية والبيانية ، يقول : « جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لفتن الرأسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى

عدة فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور » .

ويحكى ابن خلدون قائلا : « خرج الوزير لسان الدين الخطيب الى مكان نزلى ، ثم نظمى فى عليه أهل مجلسه ، واختصنى بالنجو فى خلوته ، والموكبة فى ركوبه ، والمواكلة والمطاية والفكاهة فى خلوات أنسه » ..

ومن ناحية أخرى بالغ سلطان غرناطة فى اكرامه ، وبعثه سفيراً الى ملك قشتالة بطره ( بدور ) سنة ٧٦٥ هـ - ١٣٦٤م ، وأدى مهمته بنجاح ، ولما عاد بالغ السلطان فى اكرامه فاستقدم أسرته من قسنطينه ، وعاش فترة نادرة مع أسرته .. ولكنه لم يلبث أن شعر بانتقباض السلطان عنه ، واتهم ابن الخطيب فى ذلك التحول ، خشية منه على مكانته ونفوذه ، يذكر ابن خلدون : « ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعيايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستى للسلطات ، واشتماله على ، وحركوا له جواد الغيرة فتتكر ، وشممت منه رائحة الانقباض ... ولم يبق محل لأطالة الإقامة ولا مناص من الرحيل » .

ويدور الزمن دورته من جديد ، ويعود ابن خلدون لسابق قوته ونفوذه فى بلاد السلطان أبى عبد الله صاحب بجاية ، ويروى ابن الخطيب عن ابن خلدون أحد المسائل التى تجنب روايتها ابن خلدون فى سيرته ، وهى زواجه بجارية أسبانية .. « تسرى

جاريه رومية إسمها هند .. « كما يسجل التي داعب بها صديقه صبيحة زواجه يقول فيها .. » فلما إنسدل جناح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء فريضة السلام ، وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتى دنو الجلسة ، سارقة الخلسة ، ثم عضه النهذ ، وقبله الفم والخد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد « ويتاكل نفوذ لسان الدين الخطيب ، وتحرق كتبه فى ساحة غرناطة ، ويتهم بالزندقة ، فيلجأ الى فاس بعد أن يبعث رسالة شديدة اللهجة الى السلطان ، يدين فيها أعماله السياسية ، ويعكف فى فاس على البحث والتأليف .

وتنتهى محنته ويدفع حياته ثمنا لحريته وتظل محنة المفكر مع المجتمع قائمة .

وهكذا لقي صديق ابن خلدون حتفه ، عام ٧٧٦ هـ ونتمس فى سيرة ابن خلدون الذاتية ، مدى تأثير مأساة صديقه ، فيما اتخذه بعدها من قرارات والتي كان أبرزها ، انقطاعه للعلم وابتعاده عن الحياة السياسية .

ويمكن إجمال هذه المرحلة من حياته على النحو التالى ..

قضى ابن خلدون فى المغرب الاقصى ثمانى سنين ، قضى منها فى سجن فاس نحو عامين ، ونحو ستة أعوام الى جانب ثلاثة أمراء ووزيرين .

أبو سالم بفاس وقد تولى فى عهده كتابة السر والانشاء والمراسيم ، ثم عمل مع عمر بن عبد الله بفاس فى ذات الوظائف السابقة .

حمل ابن خلدون خلال عمله العام ، قلق المفكر ، ورفضه للكثير من الأعمال السائدة ، وقد أخذ يردد فى سيرته الذاتية كثيراً رغبته فى التفرغ لكتبه وأوراقه ويعرض العديد من محاولاته فى هذا المجال ، يقول : « نزعنا عن غواية الرتب ، وطال على اغفال العلم ، فاعرضنا عن الخوض فى أحوال الملوك وبعثنا المهمة على المطالعة والتدريس .

فكان يرى فى المعارف شرطاً هاماً لانجاز الأعمال الاجتماعية والسياسية فى خدمة المجتمع ، ويرى فى العلم وسيلة ضرورية للتنظيم الذى يسبغ على السياسة خبرته ومعرفته ، وفى ظنى أن اعدام لسان الدين الخطيب كان نقطة تحول أساسية فى حياته ، فبدأ يكثر الحديث عن زهده فى الوظيفة « متفادياً عن تجشم أهوالها » وزادت حاجته للانسحاب من ميدان السياسة ، والبعد عن دسائس رجال البلاط والى وقع ضحيتها مراراً ، مما كان يستنزف قواه .

### ● مكيا فيلى وابن خلدون

ويعتبر الكثيرون أن ثمة تشابهاً بين ابن خلدون ومكيا فيلى ..

رغم أن ابن خلدون قد ظهر قبل ميكافيللى بأكثر من قرن من الزمان .. إلا أن كل منهما أُنقن اللعبة السياسية المعقدة ، ولم توصل هذه اللعبة أيا منهما الى مقصده ، ويقدم ابن خلدون نفسه فى « التعريف » كمتكبر معتد بنفسه يريد أن يفهم الناس عنه ، أن فاجعة ما لم تزلزل فؤاده .

ويصل التشابه الى التطابق أحيانا ، ففي المرحلة الأولى من حياتهما ينغمس كلاهما فى العمل فى بلاط القصور ، ويعمل كل منهما مبعوثا دبلوماسيا يوفد أميره فى سفارات الى الخارج وكلاهما قضى النصف الثانى من حياته منكبا على الدراسة والبحث ، وكلاهما مر بتجارب تخلع القلب ، فعاصر ابن خلدون مأساة الوزير لسان الدين الخطيب الذى اتهم بالهرطقة نتيجة صراعاته السياسية ولقى مصرعه وأحرق جثمانه .. وعاش ميكافيللى مأساة المصلح الدينى سافونا رولا الذى أعدم حرقاً فى فلورنسا بالتهمة ذاتها . وكلاهما ترك وراءه عملاً فكرياً هاماً .

## ● الانقطاع للعلم

ها هو ذا ابن خلدون يصمم على العزلة والبحث .. وينجح فى المرة الأولى فى الاعتزال فى رباط أبى مدين ، ويذكر.. « أقمّت فى تلك الليلة فى الاعتقال فى تلمسان ، ثم أطلقنى من الغد ونزمار بن عريف ، فعمدت الى رباط الشيخ

الولى أبى مدين ،ونزلت بجواره مؤثرا التخلّى والانقطاع للعلم  
لو تركت له .

ومرة أخرى يخرجّه الصراع القائم من عزلته .. «  
فاستدعانى السلطان من خلوتي ، بعد أن أخذت فى تدريس  
العلم ، واعتزمت على الانقطاع ، فأنسنى ، وقربنى ، ودعانى  
.. فلم يسعنى الا اجابته « ثم أصبح موضع ريبة من أمرائها  
جميعا ، فترك أسرته بفاس وغادر المغرب الى تلمسان وعكف  
فى قلعة ابن سلامة فى وهران بالجزائر .. للقراءة والتأليف ،  
ونجح أخيراً فى تحقيق عزلته ، وانتزاع نفسه من الدوامة التى  
كانت تشده .

ويذكر ابن خلدون : « وأنزلونى بأهلى فى قلعة ابن سلامة..  
فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها ، وشرعت  
فى التأليف .. « وكان وقتها فى نحو الخامسة والأربعين من  
عمره ، ونعم بالهدوء والاستقرار ، وكتب كتابه العبر ، الذى قدم  
له ببحث عام فى العمران البشرى الذى اشتهر باسم « مقدمة  
ابن خلدون » والتى استغرق فى كتابتها بدون مصادر خمسة  
شهور ، مما جعله يغادر صومعته الى تونس ، يذكر : « رجعت  
الى تونس ، وأويت الى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمة ،  
وبحثت عن الأهل والولد وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمة ..  
والقيت عصا التسياد »

واذا كان ابن خلدون قد تخطى عن العمل مع الأمراء والسلاطين ، فلم يتخل الأمراء والسلاطين عنه ، وإذا كان قد قضى ثمانى سنوات متفرغاً للقراءة والكتابة ، منها أربع سنوات فى قلعة ابن سلامة ، وأربع سنوات أخرى فى تونس ، فحان له الرحيل فلم تعد ذرائعه كافية ، وها هو السلطان بعد أن صحب ابن خلدون فى إحدى حملاته الحربية الى الجنوب يلح عليه لمصاحبته فى حملة أخرى الى الزاب ..

ويتوسل للسلطان أن يخلى سبيله لقضاء فريضة الحج ، « فاذن لى وخرجت الى المرسى ، والناس يتسألون على أثرى من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم .. »

وتبدأ مرحلة جديدة هامة فى حياة ابن خلدون ، عندما يقصد الى القاهرة مركز الفكر فى المشرق والمغرب ويقيم فيها أربعة وعشرين عاماً وينسج حياة جديدة ، نصحه خلالها .

### ● حياة ابن خلدون فى مصر

يلاحظ من يقرأ السيرة الذاتية للمفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، أن حياته تنقسم إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى قبل وصوله إلى مصر ، والمرحلة الثانية بعد وصوله إليها ..

يرى فى المرحلة الأولى ، أصله ونسبه وأسائنته ، والكتب التى قرأها ، والوظائف التى شغلها ، واعتزاله وتأليفه سفره العظيم كتاب « العبر » ، وهو ما استعرضناه ..

ويصل للمرحلة الثانية عندما يروى قصة رحيله إلى مصر عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م ، التي قضى فيها ما تبقى من حياته ، وخاض فيها تجاربه الجديدة ، فأضاف ونقح كتابه « العبر » ، وخط كتاب « التعريف » فى ضيعته بالفيوم ..

غادر ابن خلدون المغرب وتوجه إلى مصر ، هربا من السياسة ، ومن أجل التفرغ للعلم والدراسة ، ولكنه بعد وصوله إلى القاهرة أنغمس لا فى السياسة وحدها ، بل فى المناورات والمنازعات بين الأمراء والسلاطين ..

ولم يستطع ابن خلدون طوال حياته ، الإفلات من تأثير قوتين متضادتين ، ولعه بالدرس والعلم من جانب ، وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر ، بدأ حياته دارسا ثم انتقل إلى العمل والسياسة ، ووصل إلى أعلى المناصب ، ولم يستطع التخلّى عن العلم ، فكان يعمل فى تدبير الملك صباحا ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء ، ولا نجده يذكر فى سيرته الذاتية انهماكه فى شؤون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم ، حتى أنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية .. !

ربما كان ذلك بسبب شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية ، التي لا يعرفها إلا من كان فى قلبها ، وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسى وطبيعة حياته الصاخبة ، والتي استخرج من رحيقها سفره القيم .. وربما انتقل اليه



الحنين للعلم والسياسة ، من عائلته التى كانت تتقلب حسب قوله .. « بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية » ..

ولكن المؤكد أن تجاربه السياسية التى عاشها ، هى التى أمدته بتلك الواقعية التى اتسمت بها مؤلفاته ، وأنها السر وراء وصوله إلى تلك المعادلة الصحيحة بين الوقائع والأفكار ، بين الواقعية والمثالية ، بين الواقع والخيال ، فكتب أهم ما جاء فى التراث العربى ، وجعلته تجربته العملية يرى الواقع وينفذ منه إلى حركة المجتمع وتاريخ المجتمعات البشرية ، فجاء هذا الفكر الخلاق الذى قدمه .

وكتب تلك العبارة النافذة .. « إن المنطق القديم لا يطابق الحياة الواقعية ، وأن الواجب يقضى على من يريد فهم الحياة الحقيقية أن ينظر إليها حسب منطقها .. » ، وكان يخط بهذا القول منهاجاً جديداً ، لا يكاد يعرف فى العصور الوسطى ، وانقضت قرون حتى يسود فى العصر الحديث ، وهذا ما جعل مؤرخاً مثل أرنولد توينبى يقول : « إن ابن خلدون آخر نجوم المؤرخين ، فقد صاغ فلسفة للتاريخ ، هى بلا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أى عقل فى أى عصر .. » ..

وما زال الفرق بين النظرية والتطبيق أحد أسباب عجز الكثير من المفكرين ، الذين يهملون الواقع ويحلقون فى نظريات مجردة ، ويتضح ذلك أكثر ما يكون فى الحياة اليومية ، فإذا طلب صديق أو قريب نصيحة أحد المفكرين ، تأتى هذه

النصيحة عملية مكتسبة من خبرة الحياة ، أما ما يعلنه ذات المفكر فوق المنابر العامة فيقتصر غالبا على الأفكار التي لا صلة لها بواقع الحياة ، ولكن مفكرنا قدم فكرا عمليا يقتزن بموقف نقدي ، يفحص الأخبار في معزل عن الأفكار ، حتى وجد من يقيم افكاره بأنها « منحرفة عن شرعة الأخلاق » ، وجعل سيريان Syrien يبدى دهشته بقوله : « إن سيرته الذاتية تمتلئ بالمتناقضات التي تعود إلى العبقريّة المزوجة ، فمؤلف تلك الأسفار العظيمة ، لا يزال لغزا ، بسبب الفارق بين عقائده وسلوكه ، والتباين بين نظريته للمصلحة العامة وأنانيته الظاهرة ، والتناقض بين عدم تحيزه في البحث والعلم وتفضيل نفسه على الآخرين ، مما جعل تقييم سيرته الذاتية مهمة صعبة !

فهل هذه الصعوبة هي التي جعلت أغلب الأبحاث حول أعمال ابن خلدون تتناول مقدمته وكتابه « العبر » . وتتجنب كتاب « التعريف » الذي يروى فيه سيرته الذاتية .. ؟

## ● أبعد من الخيال ..

ولنصحبه وهو يروى رحلته الغنية بالتجارب إلى مصر ، ونأمل وقائعه ، وأثرها في كتابات عصره ، لعلنا نحل اللغز الذي ظهر لسيريان عن قراءته سيرة ابن خلدون الذاتية ..

جذبت القاهرة ابن خلدون ، لأنها عاصمة الفكر والثقافة ،  
وأجمل عواصم الشرق عمارة ، وهى مقر الخلافة الاسلامية ،  
وموطن الأزهر الشريف ، وعاصمة أكثر الدول الاسلامية  
ازدهارا ، وأشهرها تجارة وصناعة ، وقلعة الجهاد التى رد  
جيشها عن أرض العرب والاسلام ، الصليبيين والتتار ..

وكان الإطار السياسى فى مصر مشحونا بالعوامل التى لم  
تعرض له من قبل فى المغرب ، فلا تحكمها قبائل متنازعة كما  
عاش خلال تجربته الأولى ..

ولندع ابن خلدون يصف لنا القاهرة ، يقول : « رأيت  
حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج النر  
( النمل ) من البشر وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح  
القصور والدواوين فى جوه ، وتزهو الخوانك والمدارس بأفائه ،  
وتضىء البدر والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ بحر  
النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل  
سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه ..

ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها  
تزخر بالنعيم ، ومازلنا نتحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى  
العمران ، واتساع الأحوال .

ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ،  
حاجبهم وتاجرهم ، بالحديث .. سألت صاحبنا قاضى

الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرئ ،  
كيف هذه القاهرة ؟

قال : « من لم يرها لم يعرف عن الاسلام .. » ، وسألت  
شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية قال : «  
كأنما انطلق أهله من الحساب » ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم  
العواقب .

وسأل الفقيه الكاتب أبو القاسم البرعى فقال : « إن الذى  
يتخيله الانسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع  
الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما  
يتخيل فيها .. »

هكذا كانت صورة القاهرة قبل أن يصلها ، وعندما وصلها  
كان فى الثانية والخمسين من عمره ، وسبقه إليها سفره  
العظيم «العبر» ، وذاع صيته ، واحتفت به القاهرة واندمج  
سريعا فى نسيج حياتها ، وأصهر بعد المأساة التى وقعت  
لأسرته من إحدى عائلاتها ، وأقام بها أربعة وعشرين عاما  
وحتى آخر أيام حياته ، وسكن على النيل ، وكتب سيرته  
الذاتية فى ضيعته بالفيوم المهداة إليه من السلطان برقوق  
ويصف لنا استقبال القاهرة له بقوله : « ولما دخلتها أقمت  
أياما ، وانثال على طلبة العلم بها ، يلتمسون الافادة مع قلة  
البضاعة ، ولم يوسعونى عذرا ، فجلست للتدريس بالجامع  
الأزهر ، .. »

- ويسجل معاصروه من علماء القاهرة انطباعهم عنه :
- ويذكر تقى الدين المقرئى .. « قدم فى شهر رمضان سنة ٨٧٤ هـ ، شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد المغرب ، وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ، فاقبل الناس عليه وأعجبوا به » ..
  - يقول لنا ابن حجر العسقلانى .. « كان لسنا فصيحاً ، حسن الترسل وسط النظم ، مع معرفة تامة بما يتحدث فيه » ..
  - ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى .. « واستوطن القاهرة ، وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد » ..

## ● العالم والسلطان ١

كان ابن خلدون يجيد التعامل مع الحكام ، ويعرف كيف يؤثر عليهم عند لقائهم ، فهو حسن الصورة ، بارع الحديث ، يملك لباقة ومعرفة واسعة ، يحسن عرض معارفه ومواهبه ، وكانت شخصيته الجسورة تجذب إليه السلاطين والأمراء ، وسبق له ونجح مع العديد منهم ، عندما التقى ببدر ملك قشتالة ، وعندما التقى بالسلطان برقوق ، وعندما التقى بتميمور لك فى مرحلة لاحقة ..

فماذا كان بين العالم ابن خلدون والسلطان برقوق ؟ ..

إنه يعرف كل التفاصيل عن طبيعة الحكم الذى يتعامل معه ، سلبياته وإيجابيته ، يتوق الحاكم لسمع منه مصائر الدول ومصارعها ، أسباب قوة الحاكم ، وضعفه ، ولا يخرج ما قاله للسلطان عن حكم الممالك عما سطره فى كتابه « التعريف » .. يقول : أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء فى التخلق بآداب الصوفية السنية ، وفى مطارحة الأفكار ونوافل الصلوات ، أخذوا ذلك عن قبلهم من الدول الخلافية ( الخلافة ) ، فيختطون مبانيها ، ويقفون الأراضى المغلة للانفاق منها على طلبة العلم ، ومتدربى الفقراء ، وإن استفصل الريع شيئا عن ذلك ، جعلوه فى أعقابهم خوفا على الذرية الضعاف من العيلة ( الفقر ) ، واقتدى بسنتهم فى ذلك من تحت أيديهم من أهالى الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذاك من محاسن هذه الدولة التركية ، وأثارها الجميلة الخالدة » ..

وكان لديه الكثير ليقوله للسلطان فقد وصل إلى القاهرة بعد أن تولى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بحوالى عشرة أيام ، والذى وصل إلى أريكة الحكم بعد صراع مرير ، وعبر موجة من المؤامرات وعمليات القتل والخنق والسجن والإبعاد ، وخاض طريقا طويلا ، بدأ كأحد الممالك فى القاعدة حتى

وصل إلى القمة ، وكان آخر ما وصل إليه اتابكا للعسكر  
(قائدا ) ومديرا للسلطنة ..

« ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبر اللقاء ، وأنس الغربة ،  
ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم .. » .

هذا ما ذكره ابن خلدون عن لقائه بالسلطان برقوق ، ومنه  
نتبين أن أول لقاء ، نتج عنه علاقة حميمة دامت حتى آخر أيام  
السلطان ، بعد أن ترك انطبعا لدى السلطان بعقليته الفريدة ،  
ومعارفه الواسعة وفهمه لشئون الدولة ، وسانده بعدها السلطان  
فى كل أعماله ، وأصبح له حاميا ونصيرا ..

حتى أن السلطان كتب رسالة إلى سلطان المغرب ، يطلب  
فيها السماح لأسرة ابن خلدون بالقدوم إلى القاهرة ، سجل  
نصها ابن خلدون ، وجاء فيها .. « لقد أثر ابن خلدون الإقامة  
عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحببا إلينا  
وتقربا إلى خواطرننا بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة ،  
وصفاته الجميلة » ..

ومنذ هذا اللقاء ، وابن خلدون يشارك فى حياة مصر  
السياسية ..

### ● العالم النقيه ..

أشبع ابن خلدون حبه للمعرفة بالتردد على مخازن الكتب  
العديدة فى القاهرة ، والتفاف عدد من التلاميذ حوله ، ولقاء

العلماء وإلقاء المحاضرات فى مدارسها ، فعلاوة على إلقاء الدروس فى الأزهر الشريف ، عين أستاذًا فى المدرسة القمحية بالقسطاط ، ويذكر درسه الأول الذى كان فى موضوع بالغ الدلالة وهو « دور العلماء فى الدولة » ، ويقول فى ختام المحاضرة .. « شيعتني العيون بالتجلة والوقار ، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب (!) » ، وقيل « محاضراته إليها المنتهى » ، ثم انتقل للتدريس بعدها فى المدرسة الظاهرية فى بين القصرين بحى الجمالية ، وعقب عودته من الحج عين شيخا للحديث فى مدرسة صرغتمش ، وترك كوكبة من التلاميذ على رأسهم تقى الدين المقرئ ، الذى تمثل فيه وفاء التلميذ لأستاذه ، فكان يلقبه شيخنا العالم العلامة ، شيخ الفقهاء ، « وصل إلى مرتبة .. لم يعمل مثلها ، وإنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، وبهجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث ، والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدرر النظيم ، وألطف من الماء مر به النسيم » .

ومن جانب آخر أحقق عليه المدرسة المحافظة ، وأثارت دروسه وأفكاره الجدل ، واتهمته هذه المدرسة بكل نقيصة !



## ● قاضى القضاة

فإذا كان ابن خلدون أشبع حبه للعلم والدرس ، فحان ظهور ولعه بالمناصب والجاه ، وما هو يتولى منصب قاضى قضاة المالكية، ولم يمض على وجوده فى القاهرة سوى عامين، وهو منصب له أهمية بالغة ، وهو واحد من أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وإذا كان منصب القاضى فى عصر فصل السلطات لا صلة له بالسياسة ، فإنه فى عصر ابن خلدون أحد المناصب السياسية الهامة ، فالقضاة يفتون فى القضايا الهامة ، ويستشيرهم السلطان فى أمور الحكم ، ويتمتع القاضى بنفوذ كبير، لا يقل عن الأمراء المتنازعين فى ظل الوضع القبلى فى المغرب .

ويمكن تلمس مظاهر الجاه للقاضى فى تفاصيل صغيرة سجلها المؤرخون ، مثل عدم جواز سير القاضى على أقدامه ، وكانت بغلة من نوع خاص هى مطية القاضى ، رمادية اللون ، غالية الثمن ، يوازى ثمنها أفضل الجياد ، ولا يسمح لغير القاضى بركوب ذات اللون ، وتمنح للقاضى من السلطان عند تعيينه .

لذلك فالصراع الذى يدور حول منصب القاضى هو أشد الصراعات السياسية ضراوة ، وتحفل سيرة ابن خلدون الذاتية بالصراعات التى دارت ، حتى أن مؤرخنا تقلد هذا المنصب وعزل منه ست مرات ، وتوفى بعد ولايته السادسة بأيام قليلة .

ويحكى لنا تعيينه فى منصب القاضى بقوله . « وبينما أنا فى ذلك ( يقصد التدريس فى المدرسة القمحية ) ، إذ سخط السلطان ( على ) قاضى المالكية فى دولته لبعض النزاعات فعزله .. اختصنى السلطان بهذه الولاية تأهيلا لمكانى وتنويها بذكرى ، وشافهته بالتفادى من ذلك ، فأبى إلا إمضاءه ، وخلع على بايوانه ، وبعث من كبار الخاصة من أقعدنى بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية .. »

ويروى ابن حجر العسقلانى فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » قصة توليه القضاء بقوله : « لما دخل الديار المصرية ، تلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتودد له والتردد إليه ، فلما ولى المنصب تنكر لهم ، وفك فى كثير من أعيان الموقعين ، والشهود ، فقد ... » لازم أبطننا الجوبانى ( أحد أمراء المماليك ) فاعتنى به ، إلى أن قرره الملك الظاهر برقوق فى قضاء المالكية ، فباشره مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر الجن ، وصار يغرر بالصفع ويسميه « الزج » ، فإذا غضب على إنسان قال « زجوه » فيدفع حتى تحمر رقبتة « الى أن يقول : « لم يغير زيه المغربى ولم يلبس زى قضاة هذه البلاد ، وكان يحب المخالفة فى كل شىء »

أما ابو المحاسن ابن تغرى بردى فله رأى آخر « ابن خالزون عمل على تحقيق العدل ، وواجه الكبير قبل الصغير ... باشره بحرمة وأفرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ورفع

رسائل أكابر الدولة وشناعات الأعيان ... وكان صارما للغاية ،  
وقد أنكر تدخل الشخصيات الهامة ، ورفض الرشوة ، فشهروا  
به عند السلطان فعزله .. »

وسجل لنا ابن خلدون تجربته في القضاء بقوله : « قمت  
بما دفع السلطان إلى من ذلك المقام المحمود ، ووقيت جهدي  
بما أمنى عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الحق لومة ، ولا  
يزعني عنه جاه ولا سطوة ، مسويا في ذلك بين الخصمين ،  
أخذاً بحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات  
والوسائل من الجانبين ، جانحا إلى التثبت في سماع البيانات  
والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ، فقد كان البر  
فيها مختلطا بالفاجر ، والطيب ملتبسا بالخبيث ، والحكام  
ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهرون عليه من  
هناتهم ، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة ، فإن  
غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمون للقرآن ، وأئمة في  
الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ،  
ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة  
والتوسل لهم ، فأعضل دأؤهم ، وفشت المفاصد بالتزوير  
والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه  
بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ..... وكان منهم كتاب لدواوين  
القضاة والنوقيع في مجالسهم ، وقد دربوا على إملاء  
الدعوى، ونسجيل ( الأحكام ) ، واستخدموا للأمراء فيما

يعرض لهم من العقود ، بأحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ،  
فصار لهم الفضل بذلك على أهل طبقتهم ، وتمويه على  
القضاة بجاههم ، يذرعون به مما يتوقعونه من عتبهم  
لتعرضهم لذلك بفعلاتهم ، وقد يسلط بعض منهم قلمه على  
العقود المحكمة ، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو  
كتابي ، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة ،  
وخصوصا في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا  
المصر بكثرة عوالمه ، فأصبحت خافية الشهرة ، ومجهولة  
الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنسوبة للحكام  
بالبلد ، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكاً ، شارطوه وأجابوه ،  
مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دون سد الحظر والمنع  
حماية عند التلاعب ، وفش في ذلك الضرر في الأوقاف ،  
وطرق الغرر في العقود والأملاك .. فعاملت الله في حسم ذلك  
بما أسفهم وأحقدهم ... وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل ،  
ورددتهم على أعقابهم .. فأرغمهم ذلك مني ، وملاهم حقدا  
وحسدا علي ... ولم يكن ذلك شأن من رافقتهم من القضاة ،  
فنكروه علي ، وعدوني إلى تبعمهم فيما يصطلحون عليه من  
مرضاة الأكابر ، ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور  
الظاهرة أو دفع الخصوم إذا تعذرت ، فأبيت في ذلك كله إلا  
إعطاء العهدة حقها ، والوفاء لها ومن قلدنيها ، فأصبح الجميع  
على ألبا .. وفي النكير على أمة .. وانطلقت اللسنة ، وارتفع  
الصخب ... فكثر الشغب على من كل جانب ، وأظلم الجو بيني

وبين أهل الدولة ، ... واعتزمت الخروج من المنصب ، فلم يوافقنى عليه النصيح ممن استشيرته ، خشية من نكير السلطان وسخطه » .

ولعلى أطلت فى الاستشهاد بما جاء على لسان ابن خلدون، ولكن ألم تلحظ عزيزى القارئ أن تلك الأساليب التى سجل بعضها مفكرنا تتوالى على مر العصور .

### ● محنة ١

عندما ينشب صراع فى قمة السلطة ، فما الذى على العالم والمفكر أن يفعله ، ومع من يقف فى الصراع ؟ مع الحق أم مع المنتصر ؟ كانت هذه هى المحنة التى واجهت ابن خلدون خلال حياته فى القاهرة .

وقع ذلك عندما نجحت إحدى المؤامرات ضد السلطان ، وأمكن خلع السلطان برقوق من منصبه ، وقاد هذه المؤامرة يلبغا الناصرى فى ٥ جمادى الثانى عام ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م ، وطلب السلطان برقوق من الناصرى الأمان وسلمه شعائر السلطة ، ونفى الى قلعة فى دمشق .

ولم يكن ذلك سوى أحد فصول الصراع على السلطة بين أمراء المماليك ، وسرعان ما فر السلطان برقوق فى جنح الظلام من القلعة، وتجمع حوله الانصار ، وتوجه إلى القاهرة لاسترداد عرشه، وقامت الاستعدادات لمواجهته ، وعزم

الاتابكى منطاش على الخروج لمقاتلته ، وجمع منطاش مجلسا يضم الخليفة والقضاة الأربعة وعددا من العلماء ، بينهم ابن خلدون ، وطلب اليهم إصدار فتوى بشرعية مقابلة برقوق وقواته ، ورغم أن ابن خلدون تربطه صلات حميمة بالسلطان برقوق ، فإنه وقع الفتوى ، فإذا كان يؤمن بمثالية الاهداف فهو يؤمن أيضا بواقعية الوسائل ، ويرى أمامه شمس الدين محمد الركراكى يرفض توقيع الفتوى فيودع فى سجن القلعة ، وربما تذكر ما وقع لصديقه لسان الدين الخطيب الذى أعدم وشوهت جثته ثمنا لموقفه المعارض ..

وتدور الدوائر وينتصر جيش السلطان برقوق ويهزم جيش منطاش ويعود برقوق إلى أريكة السلطنة ويعين الركراكى قاضيا لقضاة المالكية ويعزل ابن خلدون من الخانقاة البيبرسية .

ويذكر ابن خلدون هذه الواقعة فى سيرته الذاتية ، ولكنه يؤكد أن خصومه كانوا وراء عزله من منصبه .... يقول « أعد الظاهر برقوق السير إلى مصر ، وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره ... ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه ، وولى سودون على نيابته ، وكان ناظرا للخانقاه التى كنت فيها ، وكان ينقم على أحوالا من معاصاته فيما يربد من الأحكام فى القضاء أزمان كنت عليه ... وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش ، واكرهنا على كتابتها

فكتبناها ، وورينا فيها بما قدرنا عليه ، ولم يقبل السلطان ذلك ، وعقب عليه وخصوصا على ، فصادف سوبون منه إجابة فى إخراج الخانقاه عنى ، فولى فيها غيرى وعزلنى عنها .. !! ، وكتبت إلى الجويانى بأبيات اعتذر عن ذلك ليطالعه بها فتغافل عنها ، وأعرض عنى مدة ، ثم عاد ( السلطان ) إلى ما أعرف من رضاه واحسانه » .

وهو هنا يروى تفاصيل القصة بوضوح ، أى يدافع عن واقعيته فى التعامل مع الأحداث السياسية التى اعترضته ، ولا يرى فيما قام به ما هو مشين ، ولا يرائى فيما فعل ولا يعتذر عنه ، بل ويقول بصراحة ... « إن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتعلق .. » !

### ● العالم والغازى : لقاء ابن خلدون وتيمورلنك

ونمضى مع العلامة ابن خلدون وهو يروى سيرته الذاتية .. نتوقف عند ذلك اللقاء التاريخى الذى جرى فى ظروف بالغة الدقة ، على مشارف دمشق ، فى هدام أقدار وسط أحد الصراعات التاريخية الكبرى ، ومع صليل السيوف وبين المعارك الضارية ..

جمع اللقاء بين أكبر علماء العصر ، وأكبر قادته العسكريين العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، والغازى تيمورلنك .

يتعرف كل منهما على صاحبة ، ويرى كل طرف لدى الآخر ما يقدمه ، يلتقى القلم والسيف ، المعرفة والقوة ، العلم والدماء ، يأمل ابن خلدون - وهو المؤرخ - فى التعرف على هذه الشخصية التى أزهلت العالم ، ويحلم تيمور أن يصل بسيفه وفرسه الى آخر الدنيا .

فهل يقربه ابن خلدون بمعرفته من غايته .. ؟ !

روى لنا ابن خلدون فى كتابه « التعريف » ، كيف هيات له اقامته فى مصر التى استمرت أربعة وعشرين عاماً ، ثلاث رحلات هامة ، مرة ليؤدى فريضة الحج ، ومرة أخرى لزيارة فلسطين والتجول فى القدس ، والثالثة فى صحبة السلطان فرج الى دمشق للدفاع عن المدينة أمام تهديدات قوات تيمورلنك .

وستتناول رحلته الى دمشق ، وما حفلت به من مغامرات سياسية ، والتى وصفها ابن خلدون وصفا حيا مستفيضاً ، لا ينقصه الصراحة والوضوح ، ومدخلنا الى هذه الرحلة السياق الذى تمت فيه ، والذى مهد للقاء عالمنا بذلك الغازى المندفع من سهول آسيا .

لم تكن هذه الموجة العاتية التى قادها تيمور ، هى الموجة الأولى ، فقد سبق وصدت القوات المصرية الموجة النثرية الأولى فى موقعة « عين جالوت » ، بعد أن اجتاحت أمامها كل شىء ،



أسقطت الخلافة العباسية ، واستولى هولاكو على العاصمة بغداد ، وجرت الدماء انهارا ..

ولم يمض وقت طويل وبدأت الموجة التالية التي يقودها نجم بازغ هو تيمورلنك الذى أقام دولة قوية عاصمتها سمرقند ، وأخذ يشعل الحرب سنويا ، وفى كل مرة يقضم مملكة أو إمارة من حوله ، ووصل بقواته من موسكو الى نهر الكنج ، واستولى مرة أخرى على بغداد ، وأرسل رسله الى القاهرة ، الا أن السلطان الظاهر برقوق ، عمل ما سبق وقام به سلفه الظاهر بيبرس ، وأعدم رسل تيمور رافضا التهديدات التي حملوها ، وقاد قواته متوجها الى الشام لمواجهة حملة تيمور ، وسرعان ما غير تيمور اتجاه حملته وتوجه بها الى الهند .

وعندما علم بوفاة السلطان برقوق ، عاد وتوجه الى الشام ، ويذكر ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة .. « بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر ، فكاد يطير بموته فرحا » . ويذكر السخاوى فى الضوء اللامع .. « لما بلغ تيمور موت الظاهر برقوق ، فرح وأعطى من بشره خمسة عشر ألف دينار ، وتهيا للسير إلى بلاد الشام » .

وكتب على مؤرخنا ابن خلدون أن يشهد تلك الأحداث الجسام ، وأن يسجل وقائعها ، ولم يعد مؤرخ المغرب والاندلس فحسب ، بل ومؤرخ المشرق العربى أيضا .

## ● سقوط حلب

كانت القاهرة ترقب زحف تيمور وانتصاراته بحذر بعد فقدان سلطانها ، وتعيش مخاطر انتقال السلطة فى ظل أمراء المماليك المتنازعين ، وتولى السلطنة فرج بن برقوق وهو مازال طفلا صغيرا ، وحين تصل حملة تيمور إلى مدينة حلب ، بعد أن أخضعت كلا من فارس والعراق ، وبعد أن قضت الحملة على الحشاشين فى مذبحة رهيبة ، يصل تيمور الى حلب وقد زين تاجه بأكثر من مملكة غنية ذات تاريخ قديم ، واستمر ظمؤه للقتال لم يخدم ، وتتحرك قوات المماليك يقودها السلطان فرج ، ويصحب السلطان - كعادة ذلك الزمان - الخليفة والعلماء والقضاة ومن بينهم عالمنا ابن خلدون ..

ويستعرض ابن خلدون جيش تيمور بقوله : « القوم فى عدد لا يسعه الاحصاء ، إن قدرته الف الف ، فغير كثير ، ولا تقل انقص ، وإن خيموا فى الأرض ملأوا الساح ، وإن سارت كتائبهم فى الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ، وهم فى الغارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادى الاعراب » .

ويروى لنا « وساد العبث والنهب والمصادرة ، واستباحة الحرم بما لم يعهد الناس مثله . » .

## ● حول دمشق

وتحركات قوات تيمور بعد تدمير حلب الى دمشق عن طريق حمص وبعليك ، وتحركات قوات السلطان الناصر فرج للدفاع عن دمشق ،

ويسجل لنا ابن خلدون السجال الذى وقع بين الفريقين ، وفى ذات اليوم الذى وصل فيه السلطان ، دحر مائة فارس مصرى ألف جندى من طلائع جيش تيمور ، ويذكر شرف الدين اليزدى مؤرخ بلاط تيمور .. « أن الخيالة المصرية كانت أحسن خيالة العالم » . وفرت جماعة من جيش تيمور ولجأت الى السلطان فرج ، واخبروه بنقاط الضعف فى قواتهم ، وكان بينهم حفيد تيمور سلطان حسين، وبعد فترة وجيزة من الاشتباكات عرض تيمور الصلح والانسحاب ، وأطلق الاسرى وطلب الافراج عن أحد أمرائه المسمى أظلمش وهو زوج ابنة تيمور الذى سبق ان خطف وأسر وسلم للسلطان فى القاهرة .

وخلال الاستعدادات للدخول فى معركة فاصلة ، وردت لسلطان فرج انباء حول مؤامرة لخلعه تجرى فى القاهرة ، فعاد اليها مسرعا .

ويروى ابن اياس القصة بقوله : « حضر السلطان الى الديار المصرية على حين غفلة ، وحضر صحبة الخليفة المتوكل وجماعة من النواب ، وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة

وغالب أمراء دمشق ، وحضر مع السلطان من العسكر نحو  
الف مملوك وحضر مع كل امير مملوكان من مماليكهم ، وليس  
معهم برك ولا خيول ولا قماش ، وكان سبب حضور السلطان  
على هذا النحو ، أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر  
( تمرلك ) مرتين وهو ينكسر ارسل تمرلك يطلب من السلطان  
الصلح ، وأرسل إلى السلطان اميرا من أمرائه يمشون بينه  
وبين السلطان في أمر الصلح ...

وبلغ السلطان في تلك الليلة ان العسكر تقلبوا عليه ، وهرب  
منهم جماعة من ، الأمراء تحت الليل .. فقام الأمراء على  
السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا من دمشق قبل التسبيح ..  
وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك  
على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا مصر ، لكي  
يسلطوا الأمير لاجين الجركسى ، فلما تحقق الأمراء من ذلك  
قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا من دمشق » .

وهاهو السلطان يغادر دمشق بعد أن قاتل دفاعا عنها  
إسبوعين .

## ● أهالى الشام

وفجأة يلحظ اهل الشام انسحاب قوات المماليك ،  
ويتصورون أنها خطة مدبرة من اجل الالتفاف خلف خطوط  
تيمور ، ومالبثت الحقيقة ان ظهرت ، فالمدينة التاريخية بدون

حماية ، وحتى حاكم دمشق تغرى بردى - والد المؤرخ المعروف - رحل مع السلطان ، وبقي اربعة امراء وقواتهم محصنين فى القلعة ..

عندها لجأ أهالى دمشق الى الفقهاء والقضاة ، فاجتمع العلماء والفقهاء ، ومدينتهم تحت الحصار ، إذا اقتحمها تيمور حربا فيسفل ما سبق وفعله فى حلب ، وجاء الفرج ، عندما نادى رسول تيمور تحت اسوار القلعة .. « الأمير يريد الاتفاق فابعثوا من يفاوضه » ، وانقسم أهل الشام ، ورفض الجنود فى القلعة أى صلح أو التفاوض مع قوات العدو ، أما العلماء والفقهاء فقد قصدوا الغازى يطلبون الأمان لأهل دمشق .

وعندما قصدوا الخروج من باب النصر للمفاوضة ، منعهم جند القلعة ، فتدلوا من السور ، وفى هذه الظروف يبرز دور ابن خلدون على المسرح السياسى ، بعد أن تركه المماليك وراء هم .

وينقل لنا ابن خلدون ، صورة تاريخية حية تختلط فيها مشاعر الخوف والأمل ، يقول : « وجاءنى القضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادلية ، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر ( تيمور ) على بيوتهم وحرهم ، وشاوروا فى ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك ونكره ، فلم يوافقوه ، وخرج القاضى برهان الدين بن مفلح ومعه شيخ القراء ، فأجابهم الى التأمين ، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة ، فخرجوا اليه

متدلين من السور ، فأحسن ( تيمور ) لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالامان ، وردهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد .. وأخبرنى القاضى برهان الدين أنه سأل عنى - والحديث ما زال لابن خلدون - وهل سافرت مع عساكر مصر ام اقمتم بالمدينة ، فأخبره بمقامى فى المدرسة حيث كنت ، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه ، فحدث بين الناس تشاجر فى المسجد الجامع ( المسجد الأموى ) وأنكر البعض ما حدث من الاستنامة الى القول ( التخاذل ) وبلغنى الخبر فى جوف الليل ، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة ، عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلى من السور .. »

وتدلى ابن خلدون بالحبل من السور ، بليل وهو كهل عجوز فى السبعين من عمره فى مغامرة سياسية محفوفة بالمخاطر ، يتنازعه الخوف على نفسه وعلى ابناء دمشق .

ويضيف ابن خلدون .. « فوجدت بطانته ( بطانة تيمور ) عند الباب ، ونائبه الذى عينه للولاية على دمشق واسمه شاه ملك ، فحييتهم وحيونى وفديت وفدونى ، وقدم لى شاه ملك مركوباً ( دابة ) وبعث معى من بطانة السلطان من اوصلنى اليه فلما وقفت بالباب خرج الاذن بإجلاسى فى خيمة هناك تجاور خيمة جلوسه .. » « وزيد فى التعريف باسمى ، بأنى القاضى المالكى بى ، فاستدعانى، ودخلت عليه بخيمة جلوسه

متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، ويشير بها الى عصب المغل جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا ، فلما دخلت عليه فأتحت بالسلام ، وأوميت ايماءة الخضوع فرفع رأسه ومد يده الى فقبلتها وأشار بالجلوس حيث انتهت ..

وظل هذا اللقاء محل جدل المؤرخين ، واعتبر البعض ما دار فيه دليل قدرة ابن خلدون وبراعته عندما أخرجته مهارته من المأزق الصعب الذى وجد نفسه فيه ، وأثار لدى البعض الآخر الشكوك ، والتساؤلات حول ما تم فيه ..

### ● الأثير الأعظم

يطلق ابن خلدون على تيمور كل انواع الالقاب فيسميه أميرا وسلطانا وأحيانا يطلق عليه « الأثير الأعظم » وقد حرص على تقديم الهدايا ، فقدم لتيمور مصحفا رائعا وسجادة انيقة ، ونسخة من قصيدة البردة للبوصيرى ، وأربع علب من حلوة مصر الفاخرة ، وزعها تيمور على جلسائه ، وبدأه ابن خلدون بالقول : ابدك الله ، لى اليوم ثلاثون أو اربعون سنة أنمنى لقاك ، فقال المترجم عبد الجبار بن النعمان - صاحب تيمور وإمامه وعالمه ، الذى كان يتقن اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وما سبب ذلك .. ؟ قلت . أمران :

الاول : انك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما اعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ، ولست ممن يقول الامور بالجزاف ، فإننى من أهل العلم .

وأما الأمر الثانى : ما كنت أسمعه كثيرا بالمغرب من  
الحدثان فى ظهوره - زحل والمشتري وكان المنجمون  
المتكلمون فى قرانات العلويين يترقبون القرآن العاشر فى  
الثلثة الهوائية - أى اتفاق ثلاثة بروج هى الجوزاء والميزان  
وبرج الدلو ، مما يدل على ترقب ظهور نجمه وكان يترقب  
عام ستة وستين من المائة السابعة ، فلقبت ذات يوم بجامع  
القرويين الخطيب أبا على بن باديس خطيب قسنطينة ، وكان  
ماهرا فى هذا الفن ، فسألته عن هذا القرآن المتوقع ، وما هى  
أثاره ؟ فقال لى يدل على ثائر عظيم فى الجانب الشمالى  
الشرقى من أمة بادية أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب  
الدول ويستولى على أكثر المعمور ، فقلت ومتى زمنه ، فقال  
عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره ، وكان شيخى أمام المعقولات  
محمد الأيلى متى فاوضته فى ذلك يقول ، أمره قريب ولا بد لك  
أن عشت أن تراه .. »

وعالما هنا يدغدغ عواطف تيمور ، بطرق مختلفة ، فإذا لم  
تفلح معه الهدايا التى قدمها ، فلا بد أن نفعل تلك النبوة  
فعلها ، فى دغدغة عواطفه ، رغم أنه سبق وكتب فى تاريخه ،  
عن ظاهرة هؤلاء الاجلاف الذين خرجوا من سهول أسيا ،  
والذى يلعب التنجيم دورا رئيسيا فى حياتهم ، وكان له معرفة  
واسعة بقبائل المغول وحروبهم ، مما سبق وذكره فى كتاب  
« العبر » المجلد الخامس ، فى اخبار التتر ، وتناول جنكيز



خان وأبناءه وأولى غزوات تيمور ، وهذا يعنى أن لديه معلومات تاريخية كاملة عن تيمور وقومه ، أحسن استخداما خلال هذا اللقاء .

وتظهر من خلال اللقاء قدرته الكبيرة على التعامل مع الملوك والسلطين والقادة والذى اكتسبه من سفاراته السابقة ، ولا يخفى ابن خلدون فى سيرته ان الوجل غلبه بما وقع من نكبة قاضى القضاة الشافعية صدر الدين المناوى .

ويورد ابن عربشاه هذه الواقعة التى تظهر الفارق بين حديث ابن خلدون وصدر الدين عند لقاء تيمور ، يقول : « وبينما هم يوما قاعدون فى حضرة ذلك البصير ، وإذا بالقاضى صدر الدين المناوى فى أيديهم أسير وكان قد تبع السلطان ( فرج ) فى الهرب ، فأدركه فى ميسلون الطلب ، فقبضوا عليه ، وأحضروه بين يديه ، وإذا هو بعمامة بالبرج ، وأردان كالخرج ، فتخطى الرقاب ، وجلس من غير إذن فوق الاصحاب ، فاستشاط تيمور غضبا وملا المجلس لها ، وانتفخ سحره ، وسجر غيظا نحره ، وشخر ونحر ، ومخر بحر حنقه وزخر ، وأمر طائفة من المعتدين بالتككيل بالقاضى صدر الدين ، فسحبوه سحب الكلاب ، ومزقوا ما عليه من ثياب ، وأوسعوه سبا وشتما ، وأشبعوه ركلا ولكما ، ثم امرهم بتشديد أسره ، وقد توفى بعدها خلال مصاحبته له أسيرا غريقا فى نهر الزاب .

## ● من الشهيد ؟

ويذكر ابن خلدون دون حرج « فزدت في نفسي كلاما  
اخاطبه به ، وانتلفه بتنظيم أحواله وملكه .. » فيعرف ابن  
خلدون جزاء من يتحدى سلطانه ، ويعرف ايضا مدى ضعفه  
أمام العلماء والفقهاء ، ويدرك قدرته على خلب لبه ، ويعرف ما  
دار بين تيمور والقضاة والفقهاء في حلب من محاورات  
ومناظرات .

وهو يعرف ماذا جرى عندما سأل تيمور العلماء والفقهاء  
في حلب ، قتل منا ومنكم أمس ، فأى الفريقين هم الشهداء ؟  
قتلانا أم قتلاككم ؟ فأجاب أحد علماء حلب ، هذا سؤال  
سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه عندما جاء  
اعرابي الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله  
إن الرجل يقاتل حمية ، ويقاقل شجاعة ، ويقاقل ليرى مكانه ،  
فأينا في سبيل الله ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم من قاتل لسكون كلمة  
الله هي العليا فهو شهيد

فقال تيمور .. جيد .. جيد .

ويعرف أنه عندما كان جنده يهبطون اصعهاون نهاهم عن أن  
يتعرضوا بسوء للحى الذى يسكنه الفقهاء ، وأنه يستهويه  
التفاف العلماء والفقهاء من حوله

## ● تيمورلنك

وأن لنا أن نتوقف عند شخصية الغازي تيمورلنك ، والتي تبدو بعض ملامحها خلال حملته على الشام ، يصفه المؤرخون ، أنه كان متين البنيان ، منتصب القامة ، له صوت جهورى يطغى حتى على صليل السيوف فى المعارك ، وله ملامح آسيوية خالصة ، ولحية طويلة وغطاء رأس مغولى قلنسوة من الفراء مخروطية الشكل يعلوها ياقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس . خضعت نصف آسيا لسلطانه ، وأندفع قواته حتى وصلت داخل روسيا ووصلت الى موسكو وأضرمت فيها النيران عام ٧٨٩ هـ - ١٣٨٤ م .

ويتصور نفسه قرينا لالاسكندر الأكبر وقيصر روما ..

فهل كان مجرد فاتح مثل هولاكو وجنكيزخان ، أم أن هناك مثلاً علياً تحركه ، وهو القائل .. « أنه فى كل اقليم يسود الظلم ، فعلى الامبر اجتثائه ، وهذا دفعنى الى فتح خراسان ، والى تخليص فارس والعراق والشام من الفوضى التى كانت نسودها .. » فيدعى أنه مبعوث العناية الالهية لاصلاح العالم ..

وأذا تأملنا الفارق بين موجة التتار الأولى على الدولة الاسلامية ابام هولاكو ، وتلك التى قادها تيمور نجد وحدة قوات المماليك تحت قيادة الظاهر بيبرس فى مواجهة الخطر

على الوطن وعلى العقيدة وجاءت الموجة الثانية والممالك متنازعون ، والغزاة الجدد يحملون راية الاسلام ، يقودهم من يدعى أنه يسعى لتوحيد عالم الاسلام تحت راية واحدة !

وينظر الترك الى تيمور على أنه سجل بداية تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ويمثل انتصار الترك على النظم المغولية والصينية، فكانت نظمه مزيجا من عادات القبائل التركية وما جاء به الاسلام ، وأنه استهدف توحيد الترك تحت زعامته ، وكانت اخطر معاركه مع آل عثمان .

وعندما قمت بجولة فى المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتى السابق فاجأتنى حركة احياء قوية لترك تيمورلنك كأحد الأبطال القوميين ، فيشكل الترك نسبة ٧٥ ٪ من سكانها ومازالت سمرقند وبخارى ( كاش ) تزدهم بالاثار المعمارية والحضارية التى تركها تيمورلنك .

وعند لقائى باساتذة المعهد العالى للامام البخارى فى طشقند ، كان يشغلهم اعادة كتابة تاريخ اسيا الوسطى ، واعادة الاعتبار لتيمورلنك ، الذى كان يهدف فى رأى اساتذة المعهد الى توحيد عالم الاسلام لمواجهة التحديات الأجنبية والذى كان يرى ان تنتقل قوة الاسلام العربية وما بقى من فروع الحضارة الاسلامية الى سهول تركستان ، وينقلون عنه قوله : « إذا كان هناك رب واحد ، فينبغى الا يوجد سوى سلطان واحد .. » !

ويورد ابن خلدون فى رسالته الى صاحب المغرب تقييمه الصادق لتييمور .. أى تقييم العالم لذلك الغازى ، يقول : « هذا الملك من زعماء الملوك وفراعنتهم ، الناس ينسبونه الى العلم ، وأخرون الى اعتقاد الرفض ، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت ، وأخرون الى انتحال السحر ، وليس من ذلك كله فى شىء ، انما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم » .

### ● طنجة وسبتا

ونعود الى لقاء تيمور وأبن خلدون يقول ابن خلدون ..  
وسألنى ( تيمور ) : من أين جئت من المغرب .. ؟ ولم جئت ؟  
فقلت جئت لقضاء الفرض ، والمفرحات بأسوارهم ( فى القاهرة ) لجلوس الظاهر على تخت الملك .  
فقال : وما فعل معك ، قلت : كل خير ..  
فقال : وأين ولدك ؟ قلت : بالمغرب الجوانى .  
فقال : ما معنى الجوانى فى وصف المغرب ؟ فقلت : معناه الداخلى أى الأبعد .  
فقال : وأين مكان طنجة من هذا المغرب ؟ فقلت فى الزاوية بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ، فقال : وسبتة ؟  
فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق ومنها التعدية الى الاندلس .

ويلاحظ اهتمام تيمور بكل من طنجة وسبتة بما لهم من قيمة استراتيجية خاصة ، وهو الذى يداعب احلامه فتح العالم ..

ويكمل ابن خلدون .. « ولم يكتف تيمور بما قلته له شفوياً .. وقال « أحب ان تكتب لى بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وادانيها جباله وأنهاره وقراه وأبصاره ، حتى كائى أشاهده ، فقلت . يحصل ذلك .. وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ما طلب وأوعيت العرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر اثنتى عشرة من الكرايس المنصفة القطع » .

وفقد مخطوط ابن خلدون عن المغرب ولعله لم يكتب سوى المعروف من المعلومات الجغرافية ، وهو يعرف أنه ضمن خطط تيمور اعداد حملة الى ساحل الاطلنطى وغزو المغرب ، وأنه استجاب لتيمور لكى يلتبس وسيلة للإبتعاد ، ويعود الى مصر يواصل البحث والتدريس ، أو لعله استهدف العفو عن الاسرى ، وأن يؤمن اهالى دمشق ويجنبهم انتقام تيمور ..

وتتوالى اللقطات والمشاهد التاريخية التى وقعت بين ابن خلدون وتيمور ، ويسجل عالمنا ابن خلدون بعض المناظرات التى كان يديرها تيمور ، والتى تعكس ثقافة عصره ..

ومن هذه المحاورات ، قول تيمور لابن خلدون : أراك قد ذكرت بختنصر مع كسرى ، وقيصرو الاسكندر ، ولم يكن

بختنصر فى عدادهم لأنهم ملوك أكابر ، وبختنصر قائد من  
قواد الفرس ..

وسأل : من أى الطوائف هو بختنصر .. ؟ فقلت : بين  
الناس فيه خلاف ، فقليل من النبط بقية ملوك بابل ، وقيل من  
الفرس الأولى ،

فقال : يعنى من ولد منوشهر ،

قلت : نعم هكذا ذكروا ،

فقال : وأى القولين أرجح عندك ؟

فقلت : إنه من عقبة ملوك بابل ، فذهب إلى ترجيح القول  
الأخر.

فقلت : يعكر تملينا رأى الطبرى ، فإنه مؤرخ الأمة  
ومحدثهم ، ولا يرجحه غيره ،

فقال : وما علينا من الطبرى ، نحضر كتب التاريخ للعرب  
والعجم ، ونناظره .

فقلت : وأنا أيضا أناظر على رأى الطبرى ..

أما ما وقع مع ابن خلدون قبل الرحيل فيرويه قائلا .. »  
دخلت على تيمور قالتفت لى ،

وقال : عندك بغلة هنا ،

قلت : نعم

قال : حسنة .

قلت : نعم قال وتبيعها ؟ فأنا اشتريها .

فقلت : ايدك الله مثلى لا يبيع لمثلك وانما أنا اخدمك بها ،  
وبأمثالها لو كانت لى .

فقال : أردت أن أكافئك عنها بالاحسان ..

فقلت : وهل بقى احسان وراء ما احسنت به :  
اصطنعتنى ، واحللتنى فى مجلسك محل كل خواصك ،  
وقابلتنى من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ،  
وسكت وسكت ، وحملت البغلة - وأنا معه فى المجلس - اليه ..

وينهى ابن خلدون حكايته مع تيمور بقوله .. « سافرت فى  
جمع من أصحابى الى مصر ، فاعترضتنا جماعة من العشير  
قطعوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، ونجونا الى  
قرية هنالك » عرايا .. ثم .. مر بنا مركب .. فركبت معهم  
البحر الى غزة ، ونزلت بها وسافرت منها الى مصر ..  
وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

## ● قصص وحكايات

وقد عالج لقاء تيمور وابن خلدون الكثير من الكتاب ،  
القدماء والمحدثين ، ونسخ حوله الكثير من القصص والحكايات ،  
وأفرد له الكاتب الأمريكى والتر فيتشل كتابا بعنوان ابن خلدون



وتيمور ، وأبرز من تناوله من المؤرخين العرب ابن عريشاه ،  
 فى كتابه « عجائب المقدور فى غرائب تيمور » ، ويروى فى  
 هذا الكتاب رواية مغايرة لما رواه ابن خلدون والفرق بينهما هو  
 الفرق بين من رأى ومن سمع ، يقول ابن عريشاه « لما أطلع  
 السلطان بفلك عساكره المشحون وقع فى بحر العساكر  
 التيمورية قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون وكان من أعلام  
 الأعيان ، وممن قدم مع السلطان .. توجه الأعيان اليه فى  
 تدبير القضية فوافق فكره فكرهم ، فملكوه فى ذلك أمرهم ..  
 فتوجه معهم بعمامة خفيفة ، وهيئة ظريفة ، وبرنس كهو رقيق  
 الحاشية ، يشبه من دامس الليل الناشئة ، فقدموه بين أيديهم ،  
 ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم ،

وحين دخلوا عليه ، رأى ( تيمور ) شكل ابن خلدون لشكلهم  
 مبائنا ، قال : هذا الرجل ليس من هاهنا ، فانفتح للمقال  
 مجال ، ونشروا سباط الطعام ، فكوموا تلالا من اللحم السليق  
 ووضعوا أمام كل ما به يليق ، فبعض تعفف عن ذلك تنزها ،  
 وبعض تشاغل عن الأكل ، وبعض مد يده وأكل .. وكان من  
 جملة الأكلين ، قاضى القضاة ، ابن خلدون وكل ذلك وتيمور  
 يرمقهم ، عينه الخرزاء تسرقهم ، وكان ابن خلدون أيضا  
 يصوب نحو تيمور الحديق فإذا نظر إليه أطرق ، وإذا ولى عنه  
 رمق ، ثم نادى ( ابن خلدون ) وقال بصوت عال ..

يا مولانا الأمير . لقد شرفت بحضورى ملوك الأنام ، وأحييت بتواريخى ما مات لهم من أيام ، ورأيت من الملوك فلانا وفلانا ، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها ، وخالطت فى كل بقعة اميرها ونائبها ، ولكن لله المنة اذا امتد بى زمانى ، ومن الله على بأن أحيانى ، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة ، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة ، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف ، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف ، فاهتز تيمور عجباً ، وكاد يرقص طرباً ، وأقبل يوجه الخطاب اليه ، وعول فى ذلك دون الكل عليه ، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها ، وأيام دولها وآثارها ، فقص عليه من ذلك ما خرع عقله وخلبه ، وجلب لبه وسلبه . »

ويذكر ابن عربشاه ، كيف تحول ابن خلدون فأصبح موضع رعاية تيمور وفى ضيافته طوال اقامته وحتى رحيله والتي استمرت خمسة وثلاثين يوماً . أما الاختلاف بينهما فى الكثير من التفاصيل فيرجع الى أن ابن عربشاه لا يرى فى تيمور سوى غاز جاء يحتل بلاده ، ويصيب أهلها بالنكبات ، وأنه شخصياً عانى الكثير من حملة تيمور ، فقد أخذه أسيراً وهو صلبى فى الثانية عشرة من عمره ، ومع أمه وأخوته من دمشق الى سمرقند ، وهناك عرف الكثير عن تيمور واعماله ، وتعلم اللغتين الفارسية والتركية ، ثم عين كاتباً للسلطان محمد الأول بن بايزيد الذى سبق أن أسره تيمور فى إحدى معاركه وانتقم

منه بوضعه فى قفص ، ثم عاد ابن عريشاه الى دمشق عام ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م . ورجل منها الى القاهرة ، واستقر بها سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م ، وألف كتابه فيها ، وحياته تلك تزيده بتيهور معرفة ، وتزيده به أيضا كراهية ..

## ● حريق فى الجامع الأموى

أما بقية القصة ...

فقد استسلمت دمشق لقدرها ، واستولت عليها قوات تيمور بأقل الخسائر ، وبكل أنواع الوعود الكاذبة وما لبث أن انتشر فيها السلب والنهب والحريق ، لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال ، ولم يلتفت الى رقايع الأمان التى كتبها تيمور .. « أما القلعة ، فإنها استعدت للحصار ، وكان نائبها يدعى ازدار ، فحصنها ، وبالأهبة الكاملة مكنها ، وانتظر من السلطان نجدة ، أو مانعا ربانيا يفرج عنه الشدة ، فلم يلتفت تيمور فى أول الأمر اليها ، ولا احتفل بها ولا عرج عليها ، بل صرف همه الى تحصيل الأموال ، وتوثيق الأحمال بالأنقال » .. « وحاصرها ثلاثة وأربعين يوما .. » ابن عريشاه .

وامتدت النيران التى اطلقت بالمنجنيق تأكل المدينة ، ووصلت الى الجامع الأموى ، فسال رصاصه وتهدمت سقوفه وجدرانها ، ودمر عن آخره فى المدينة الجزء الواقع بين المسجد الأموى والقلعة ، ويصف ابن خلدون ما جرى بقوله : « كان أمراً

بلغ حداً من الشناعة والقبح « وأعدم أزدار نائب القلعة بعد أن حصل من تيمور على وعد بالأمان ، وعاش أهل الشام مرحلة من الرعب والخوف ، وهاجم تيمور في خطاب له أهل الشام على مساندتهم للأمويين خلال « الفتنة الكبرى »<sup>١</sup>

كل هذا وابن خلدون عاكف على كتابة رسالة عن المغرب ، ويقدمها الى تيمور ، ويجالسه يناظره ويحاوره في الحضارة والتاريخ وما جاء في الطبرى<sup>١٠</sup> .

وعقب اختبار القوة الذي جرى بين تيمور وفرج ، وبعد إقامة تيمور في دمشق ثمانين يوماً ، انسحب تيمور بقواته ، واتصلت العلاقات بين تيمور والمعاليك ، وتمكن تيمور من أن يحقق عن طريق الاتصالات الودية ما لم يحققه بالحرب ، وأدت المراسلات بين تيمور والسلطان فرج الى عودة العلاقات بينهما ، فظهرت في تبادل الوفود والهدايا ، وبعد نجاح تيمور في اطلاق اسيره اقليمش ، مقابل ان يطلق ما لديه من أسرى .

وعاد الهدوء من جديد ، وكأن حملة تيمور مثل اعصار عنيف اقتلع الزرع وأرعد السماء ، ثم صفا الجو وبدأت العواصف من جديد .

ولم يحاسب احد ابن خلدون على ما دار بينه وبين تيمور ، ولا على أنه كان ضمن الفقهاء المتنادين بالصلح والأمان . فلا

يحق للذين تركوا دمشق تحت الحصار مهرولين أن يحاسبوا  
أحدا على مراقفه .

وقضى ابن خلدون بقية حياته فى القاهرة ، يواصل تأليف  
كتابه « العبر » ، وفى كتابة سيرته الذاتية ، والذي وصل فيها  
إلى قبل التسعة شهور الأخيرة من حياته وكان آخر ما خطه  
قلمه « لزمتم كسر البيت ، ممتعا بالعافية لابسا برد العزل ،  
عاكفا على قراءة العلم وتدريسه والله يعرفنا عوارف لطفه ،  
ويمد علينا ظل ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا آخر  
ما انتهيت اليه .. » .

وأطفأت المنون حياة هذه الروح المتقدة بعد كوارث الزمان  
المتلاحقة ، وبعد أن قدم بحياته وفكره تلك الأعمال الفذة ، وهو  
المفكر الكبير والفيلسوف العظيم وعالم علوم العمران الذى ملأ  
الافق بجلاله ، بعد أن عاش ستة وسبعين عاما ، وانتقل الى  
رحمة الله يوم ٢٦ رمضان ٨٠٨ هـ - ١٦ مارس ١٤٠٦ م ،  
ودفن فى مقبرة الصوفية بالقرب من باب النصر فى  
القاهرة .





علی باشا مبارک

( ۱۸۲۳ - ۱۸۹۳ ) م

على باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) ، رجل فكر وعمل ،  
يكفيه ما قام به فى عمارة الأرض وبناء الانسان مع بدايات  
النهضة المصرية الحديثة فى القرن الماضى .

وهو من أوائل من كتب ترجمته الذاتية فى العصر الحديث ،  
ولم يكتف بذلك بل ترجم لكل أثر وحجر فى مصر، ورصد  
التغير الاجتماعى فى عصره .

ورغم إنجازاته ، توقف الكتاب والمؤرخون حيارى أمام  
موقفه من الثورة العربية والاحتلال البريطانى لمصر عام  
١٨٨٢ .

وهذا ما حاول أن يقدم له التفسير فى سيرته وكتبه  
وأعماله .

على باشا مبارك ، أحد الشخصيات التاريخية فى حياة  
مصر الحديثة ، ساهم فى حركة النهوض الوطنى الحديث ،  
وأقام لها أساسا راسخا ، وبدأ رحلته من أعماق الريف فى  
ظروف بالغة الصعوبة ، هى ذات ظروف شعب مصر فى القرن  
التاسع عشر ، وخاض معركة باسلة ، ورفض الواقع الذى كان  
يعيشه ، وتطلع الى حياة وأفاق جديدة ، وأصبح أحد الرجال  
المرموقين ، وساهم فى مسئولية الحكم وتولى الوزارة أكثر من  
مرة ، وجمع خلالها بين التعليم والاقواف والاشغال ، فكان  
بحق مهندس مصر الأول ، وكان فى ذات الوقت « أبو التعليم  
المصرى الحديث » .



وانتقل من شظف العيش عند سفح الهرم الاجتماعى الى  
بحبوحة العيش فى قمة الهرم الوظيفى ، ولم تغفل عينه لحظة  
واحدة عن رسالته فى النهضة وتقديم ما يقدر عليه للبسطاء من  
أبناء البلاد ..

قام بدوره كاملا فى إحدى الدورات التاريخية الهامة فى  
القرن الماضى ، وأعطى أهم ما يقدمه مثقف لشعبه ، المعرفة  
والعمران ، وركز جهوده على نشر التعليم المدنى وإقامة  
المدارس ، وتطوير نظام الكتاتيب ، وكان له فضل إقامة دار  
الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ، وكان أول من أدرك أهمية  
قيام مجلة فكرية تنشر المعرفة وتنمى الذوق والجمال لدى  
القارئ ، وأصدر مجلة « روضة المدارس » ، ودعا الى تعليم  
المرأة وخرجها الى الحياة والعمل قبل دعوة قاسم أمين وهدى  
شعراوى ..

وساهم فى « العمران » وطور القناطر الخيرية وشق الترع  
والقنوات ، وشارك فى معظم عمليات التوسع العمرانى ،  
وخاصة تلك التى تمت فى عصر اسماعيل ، وحقق حلم كل  
مثقف ، عندما سجل تجربته فى كتابه « الخطط التوفيقية » ،  
ذلك العمل الفذ الذى يعتبر من أهم الكتب التى صدرت فى  
القرن الماضى ، وعبر من خلاله عن حبه العميق لكل حجر وأثر،  
ورصد التغير الاجتماعى الذى تعيشه البلاد ، وسجل شوارع  
وجوامع ومدارس وحمامات وأسبلة القاهرة ، وكأنه يخاف عليها

من الاندثار أو النسيان ، وسجل المدن والقرى والنجوع على طول الوادى وترجم لأعلامها ، ولم يؤرخ فى خططه للقاهرة وحدها ولا للحكام وحدهم ، بل استعرض بانوراما الحياة المصرية ، وصدرت خططه فى عشرين جزءا وخمسة مجلدات، أعادت الهيئة العامة للكتاب نشر ثمانية أجزاء منها .

وبعث من جديد فى سفره القيم نهج المقرئى فى خططه ، فوصل حاضر الخطط بماضيها ، وأظهر مقدرة فائقة على تحقيق المعالم والمواقع ، ومقارنتها بما كانت عليه فى الماضى، ووضع رحيق خبرته التى اكتسبها خلال الوظائف العديدة التى تولاها فى هذا الكتاب .

وهى نفس المحاولة التى قام بها نجيب محفوظ على نحو آخر ، عندما رصد الحياة الاجتماعية فى اعماله الروائية وخاصة الثلاثية ، وهى ذات المحاولة التى طورها الدكتور جمال حمدان فى سفره الكبير « مصر .. دراسة فى عبقرية المكان » .

وكل هذه الاعمال تعكس ولاء المثقف العميق لوطنه وشعبه .

## ● عمارة الأرض وبناء الإنسان

قضى على مبارك حياته فى صبر ودأب الفلاح المصرى ، يبنى ويعمر ويبذر فى الأرض المصرية بذور التقدم والنهضة ،

ويسعى ليلحق وطنه بمنجزات العصر والحضارة ، ولم يكتف بدوره كمهندس تكنولوجى ، وإنما أدرك أهمية أن يتعلم ويتقن الأهالى ، فتلازمت جهوده فى إقامة البناء المادى مع الاهتمام بعقل الأمة ووجدانها ، ووزع جهوده على عمارة الأرض وبناء الإنسان .

ولم يفعل مثل كثيرين غيره ، يتزود بالمعرفة والعلم ، وينتقل إلى فلك جديد يبعده عن أهله وبيئته ، بل نجد على مبارك فى كل أعماله يسعى إلى ترقية البسطاء من شعبه ، ويسهم فى يقظة الفكر ونشر التعليم ، ويوظف المناصب التى يتولاها فى خدمة الاهالى ، لعله يرد بعض حق الوطن عليه .. يقول فى سيرته الذاتية « إنى لمعترفا بفضل هذا الوطن العزيز ، فقد نشأت فى ظله ، وتقلبت فى مهده ، وتربيت فى حجر كفالته وتعهده ، حتى صرت من أبنائه المعدودين ، ورجاله المعروفين ، وتمتعت صغيرا وكبيرا بكثير من خيراته وثمراته ، ولازال متمتعا بطيباته ، فأجدنى وإن استوفيت الجهد ، وقضيت العمر فى خدمته ، لم أقم بعشر معشار ما على من واجباته وحقوقه ... ولم يمنعنى هذا من بذل جهد المقل .. وأن أخدم وطنى بكل ما نالته يدى وبلغ إمكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع ، قل أو جل كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس .. وتعميم التربية والتعليم .. ونشر الكتب المفيدة .. »

## ● الفطنة والعناد

وهو أول من كتب سيرته الذاتية قبل الشيخ الإمام محمد عبده التي بدأها وأكملها السيد رشيد رضا ومذكرات الزعيم أحمد عرابي وبعده تتابعت السير الشخصية ، التي كان بعضها في إطار عمل أدبي ، مثل « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم « والأيام » لطله حسين ، « وحياتي » لأحمد أمين ، « وتربية » سلامة موسى ، « وأنا » للعقاد ، « ومعى » لشوقي ضيف ، « ويوميات طالب بعثة » « وأوراق العمر » للدكتور لويس عوض و « زهرة العمر » و « سجن العمر » ، « ويوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم ، « وخليها على الله » و « كناسة الدكان » ليحيى حقى ، وغيرها .

وهذا ما سجلته سيرته الذاتية :

ينتمى على مبارك لأسرة فقيرة وإن كانت مصرية عريقة ، تعلم القراءة وحفظ القرآن فى صباه على يد شيخ أعمى فى قرية برنبال - دقهلية ، ومن يومها ظل يخوض رحلة كفاح بأسلة ، سلاحه الفطنة والعناد ، يتغلب دائما على التحديات التى تواجهه ، وترك لنا تفاصيل معاناته فى سيرته الذاتية . ونقل طفولته البائسة ، وصحبناه وهو يهرب من شيخه الأعمى ومن أسرته ، لكى يختار بنفسه مصيره ، وهو يعانى من السجن ظلما لأنه تجرأ وحصل على حقه من صاحب العمل ،

وفى كل هذه الظروف القاسية ، لم يتخل عن حلمه فى الالتحاق بالمدرسة ، ويصف معاناة طفولته : « راسخ فى ذهنى ، ما كان مرتبه على مؤدبى فى صغرى ، أن أتى اليه بشيء من المنزل ، فكنت أنحابل تحايل اللصوص حتى أختلسه وأتية به ، وإن أمنعت أو أست بأقل مما طلب توعدى أو هزبنى ، فكان يعاملنا معاملة الخدم (١) .. ولكنة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب اليه .. واخترت ألا أكون فقيها ، وإنما أكون كاتباً ، لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام .. »

وعمل بالفعل كاتب قسم ، ومن جديد يسيء الكاتب - الذى عمل معنا معه - له ، حتى شج رأسه بمقلاة بن ، ورفض الذهاب إلى الكاتب كما رفض الذهاب الى الشيخ ، وعندما يعمل كاتباً فى السجن بعد الإفراج عنه ، لفت إنتباهه وأثار إهتمامه كيف أتيح لعنبر أفندى المأسور الوصول الى مركزه وهو الأسود الحبشى ، والمناصب يحتكرها الاتراك والشراكسة ، وهنا يضع الفتى الأسمر يده على السر ، عندما علم أن عنبر أفندى تعلم فى إحدى المدارس التى أقامها محمد على ، وأدرك أن التعليم هو الطريق ويسجل فى سيرته .. « وددت أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها .. والحكام يؤخذون من المدارس .. » .

وأخذ تراكم الخبرة من تجاربه القاسية يحدد مساره ،  
 وكلما قست عليه الظروف قويت عزيمته ، وصمم على أن يتعلم  
 مهما كانت المشاق ، وعزم على الوصول إلى المدرسة فى  
 القاهرة ماشيا ، وفى الطريق يلتحق بإحدى المدارس العسكرية  
 التى أقامها محمد على فى « منية العز » وتصبح خطوته الأولى  
 فى طريق طويل ، فيختار منها لتفوقه لكى يلتحق بمدرسة  
 الجهادية فى قصر العينى ، ومنها الى مدرسة المهندسخانة ،  
 وأخيرا يختار الفتى ضمن ٧٠ طالبا فى بعثة الأنجال التى  
 تضم أربعة من أبناء أسرة الخديو للتعليم فى فرنسا .  
 وهاهو فى باريس عام ١٨٤٤ بعد برنبال ومنية العز  
 والقاهرة ....

ولا بد أن هذه التجربة الفريدة هى التى أوحى لنجيب  
 محفوظ فى روايته حديث المساء والصباح ، بتلك الشخصية  
 التى أختطفها رجال محمد على من حى الجمالية ، للتعليم فى  
 المدارس ، وأرسل لتفوقه فى بعثة لدراسة الطب فى فرنسا .

وفى رحلته تلك الشاقة يخوض على مبارك صراعا مريرا  
 مع ظروفه القاسية ومع والده الذى يخاف على ابنه من  
 الغربة ، ويعمل كل ما يستطيع لمنعه من الرحيل ، وعلى قدر  
 عناده كان عناد والده ، الذى ينتزعه من المدرسة ويحبسه فى  
 البيت ويعود الفتى ويتسلل ويصل إلى المدرسة ولا يبرحها ، فى  
 صراع ارادات طويل ، ولم يكن الفتى قليل الحيلة ، وإنما

يتغلب على المصاعب التى تعترضه ، ولا يستسلم للأقدار ، وعندما يشج الكاتب رأسه لا يخضع له وإنما يتركه ويمضى باحثاً عن ظروف أفضل ، وعندما يمتنع صاحب العمل عن تسليمه راتبه ... « امسكت عندى قدر ماهيتى » .

وعندما يصل إلى باريس ولا يعرف أية كلمة فرنسية وتستعصى عليه اللغة الجديدة .. « سألت عن كتاب الأطفال، فنبئونى عن كتاب فاشتريته ، واشتغلت بحفظه ، وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد ، وحرمت الرقاد ، فكنت لا أنام من الليل الا قليلا حتى كان ذلك ديدنا لى ، فحفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب ، ثم حفظت جزءا كبيرا من كتاب التاريخ بمعناه أيضا . وحفظت الأشكال الهندسية والاصطلاحات ، كل ذلك فى الثلاثة أشهر الأولى » ، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يصبح من الثلاثة الأول فى البعثة التى قضى بها ست سنوات ، وأن ينتقل بعدها إلى قمة الهرم الاجتماعى .

## ● مشروع النهضة

وتسير حياته فى مصر مضطربة هائجة مثل عصره ، فالجميع رهن بإشارة الحاكم ، والجميع أسير ما يحاك حوله من دسائس يرتفع حيناً إلى أعلى المناصب ويفقد وظيفته حيناً آخر ، ويبحث عن مصادر الرزق ، إما بزراعة الأرض أو العمل

فى التجارة ، يتذكر قائلا .. « كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوذت عليه » ، ويذكر .. « أنه يعلم ما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء .. » (١) ومع ذلك عاش فى كنف هذه العائلة طالما نجح فى تحقيق رسالته وتنفيذ مشروعه فى ترقية أبناء جلدته وتطوير حياتهم .

ويتميز موقف الرجل خلال كل أطوار حياته ، بالسعى لتحقيق رسالته فى مقاومة الجهل وبناء الإنسان وهو يعرف أن هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق فى مصر الا عن طريق الحكومة وجهاز الدولة ، ولعله أول من كتب عن طبيعة الوادى وتأثير نهر النيل على وجود سلطة مركزية حاكمة هى الحكومة أى الأداة الفعالة لنفع البلاد والعباد فيعكف عند إقصائه .. الذى كثيرا ما تكرر - على تأليف الكتب استكمالا لرسالته .

ولعل ما رواه فى واقعة تكليف الخديو سعيد له برسم الاستحكامات العسكرية فى « أبو حماد » قرب رشيد ، ما يعكس أسلوب تعامله مع الخديو ، فبعد إنجاز مهمته لم يقدر على تقديم رسوماته إلى الخديو ، وبمنصحه مأمور التشريفات .. « كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة للقاء .. » ، ويلزم على مبارك حاشية الخديو ثلاثة أشهر ، ينتقل معهم من بلد إلى بلد ، ومن موقع إلى موقع ، ومن قصر إلى قصر ، حتى كان يوما ووقع نظر الخديو عليه ، فناداه وسأله عن الرسم ، وأصبح بعدها واحدا من رجال المعية ،



وكان مبدؤه الدائم الطاعة لولى الأمر ، وكان هذا موقعه مع عباس الأول وسعيد واسماعيل وتوفيق ، ومن موقعه ينشر التعليم ويقترب كل يوم من تحقيق مشروعه فى النهضة .

## ● تراجم الأعيان

كما يظهر موقفه من خلال قراءة تراجم الاعيان التى جاء فى الخطط عند حديثه عن البلدان المصرية المختلفة ، وفى روايته للانتفاضات الفلاحية الثلاث التى سجلها وحدة ، وكان أول من رصد الحركة الاجتماعية فى القرن الماضى ، ولاحظ خلالها دور ولى النعم فى مصير الاعيان ، فالحكومة هى المصدر الرئيسى للنفوذ والفلوس ! ، فالنفوذ فى الريف يتركز فى بقايا عائلات الممالك والملتزمين السابقين ، وعند استعراضه لمدينة اسيوط يتحدث عن .. « قيسارية محمد بك الدفتردار التى بناها سنة ١٢٣٨ هـ ، وقت كان مديرا لأسيوط » ، وعند حديثه عن أعيان الغربية يذكر ثاقب باشا الذى شغل عددا من الوظائف ، ويحصر ثروته فيقول .. « ومنها ٢٠٠ فدان أنعم عليه بها الخديو عباس » ، ويلاحظ وجود أرستقراطية ادارية وعسكرية .. كثيرا ما تغتصب أراضي الميرى » ويذكر عند الحديث عن عزبة شلقان أنه .. « جعل على أرض مساكنها حكرا يدفع للميرى كل سنة بالعدالة ضرورة أن هذه الأرض ملك للميرى ، وكان المشايخ

والحكام يأخذونه لأنفسهم بمحض الظلم (!!) » ويذكر عن رفاعة الطهطاوى ان مصدر ثروته الضخمة ، هى منح الأرض التى حصل عليها خلال عهد محمد على وابراهيم وسعيد واسماعيل .. « قبل جميع ما ملكه حين وفاته ١٦٠٠ فدان غير ما جده من الاملاك والعقارات فى بلده وفى القاهرة » .

ومن جانب آخر يدين على مبارك الانتفاضات الثلاث بعد أن يسرد تفاصيلها ، ويرى فى كل منها مصدر تعاسة القائمين بها ، وسببا فى زوال النعمة وخروجا على طاعة « الامام » ! ، وشهدت قنا الانتفاضة الأولى عندما تزعم أحد المشايخ حركة الفلاحين ضد قرارات محمد على ، وطرد الشيخ عمال الحكومة وأقام حكما محليا ، وتمكن محمد على من القضاء على هذه الانتفاضة بعد شهرين بعد أن جرد لها حملة عسكرية قضت عليها ، أما الانتفاضة الثانية فشهدتها الاقصر ضد الفرمانات الجديدة لمحمد على ، وتدمرا من النظم الجديدة ، أما الانتفاضة الثالثة ، فقد وقعت فى قرية « قاو » فى أوائل عهد اسماعيل سنة ١٨٦٥ م ، ويسجل بالنسبة لواقعة « قاو » .. « كان أهلها أهل يسار لخصوبة أرضهم وجودة محصولها .. فأتاهم من كان سببا فى ازالة تلك النعم عنهم وابادة كثير من أنفسهم وأموالهم وتخريب بيوتهم » .

وعندما يتحدث عن ظروف تدهور بعض الأسر ، بسبب موقفها المناهض للسلطات الحاكمة ، فيذكر عائلة ابراهيم

الغيبيسى ( طهطا ) ، الذى كان يشغل منصب ناظر قسم فى عهد محمد على ، وخلال الصراعات التى قامت فى هذه المنطقة بين الصوامعة والونانية ، كان يتعصب لقومه سرا ، فنفت الحكومة ابنه ومات ولم يعقب ذكورا .. » .

وفى المقابل يروى قصة عمدة العقال ( أسيوط ) عبد العال العقالى أيام انتفاضة الفلاحين فى قاو « جمع أهل البلد ، ومنعهم من العصيان ضمن من عصى ، بل قام بهم مع العساكر على العصاة فحظى بالرضا والقبول ، وترك أملاكا كثيرة وقصورا مشيدة وبنى جامعا فاخرا ومنزلهم عامر إلى الآن » .

## ● التطور والثورة

يقول على مبارك .. " لا يخفى أن تربية الملل ( الشعوب ) أمر صعب ، يلزم لها زمن طويل لأن هناك عوائد قديمة ، وأخلاقا راسخة فى الأذهان ذميمة ، وأفكارا فاسدة ، واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم فى السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان ، فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو أكثرهم . فعلى حكم العقل ، يلزم التربص إلى انقضاء ثلاثة أجيال ، أى مائة سنة أو مائة وخمسين سنة "

وهنا يبدو فكر على باشا مبارك رافضاً للفكر الثورى ومن  
المنتمين إلى الدراسة الليبرالية التى تؤمن بالتطور المتدرج ،  
وأن الحياة الاجتماعية تحمل بذور عناصر التطور ، وتملك آلية  
إصلاح المسار والتغلب على العقبات ، ويعارض الثورة بما  
تحمله من احتمالات الفشل وما تنادى به من التجديد  
والتجريب، ويعتمد على النمو الداخلى للمجتمع ..

ولعل القصة التى حكاها ووقعت فى " منذرته " أيام انتشار  
أفكار الثورة ، فى مرحلة النهوض وتحدى الأجنبى المتمثل فى  
صندوق الدين - تؤكد رأيه ورفضه للثورة وإيمانه بالإصلاح  
المتدرج .

وذلك عندما يروى أنه « فى أوائل عهدى بالحكومة ،  
بعد عودتى من أوروبا ، أمرت يوماً من الأيام أن أذهب إلى  
سراى رأس التين لأقابل الوالى ، فادخلونى غرفة أنتظر ،  
وكان ينتظر معى فى الغرفة اثنان لا يعرفانى وكانا من هذا  
العنصر - الترك والشركس - وطالت مدة الانتظار وأنا صامت ،  
أما هما فلم يكن لهما حديث سوى ، كيف يصل هذا الفلاح ،  
إلى قصر الوالى .. ؟! وهل يعقل أن يدخل فلاح القصر ،  
وكان حديثهما يدور باللغة التركية ظناً منهم أننى لا  
أعرفها » . ويختتم حكايته قائلاً .. « وأصبح هذا الفلاح  
اليوم ناظراً ، وهذا مكسب كبير لنا ، فإذا صبرنا فسنحل  
محل هؤلاء الشركس».. وهو هنا يقدم حيثياته ضد الثورة

والتغيير المفاجيء فى أعلى قمة السلطة ، ويختار التطور منهجا وأسلوبا فى التغيير ، وهذا طبيعى معه كأحد العلماء والتكنوقراط الذى حقق الكثير من إنجازاته بوصفه موظفاً عمومياً .

ويلاحظ أن مدرستى الثورة والاصلاح وجدا جنبا إلى جنب فى الفكر المصرى الحديث ، ونجد عبد الله النديم فى طليعة أصحاب الموقف الثورى ، وتردد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بين الثورة ومنهج التطور المتدرج ففى أيامه الاولى وقف مع الثورة ، حتى يوم انفصاله عن جمال الدين الأفغانى فى باريس . ورفضه لفكرة الثورة ، والوصول إلى أن يلعن فيها لفظ « السياسة » ، وتركيزه بعد عودته إلى القاهرة على الفكر والتعليم والتثقيف والتزامه نهج التطور التدريجى .

### ● على مبارك والثورة

فإذا كانت جهود على مبارك قد ساهمت بالقطع فى التمهيد للثورة العربية ، فقد نال عدد كبير من رجالها حظهم من التعليم فى المدارس التى أقامها ، ولم يعد مقبولا بعد أننتشار التعليم أن تقتصر المناصب العليا على الأتراك والشركس ويستبعد أبناء البلاد، فما هو موقفه منها ؟

لقد جرف تيار الثورة العاتى المصريين جميعاً ، وتحدى هذا التيار فى إحدى اللحظات التاريخية نهجه وأسلوبه ، وكان

من العسير عليه - وهو الراصد للحركة الاجتماعية فى مصر - أن يكون بعيداً عنها ، خاصة وهو الفلاح الذى شق طريقه من أعماق الريف، الحالم برفقة بنى قومه، وتعاطف مع الثورة بالفعل فى أيامها الأولى ، وكانت « منذرته » كعبة لرجالها ، وكان يتردد عليها زعيم الثورة أحمد عرابى نفسه ، ويسجل تاريخ الثورة أن على مبارك كان يتبرع لها بسخاء ، كما ينسق فى عمله العام معها ، ويتضامن مع محمود سامى البارودى فى وزارة رياض ، ويسجل بلنت أن كلا من على مبارك وألبارودى كانا يضعان العقبات فى طريق رياض باشا سنة ١٨٨١ ، لكى يعود شريف باشا لرئاسة الوزارة كجزء من خطة العرابيين ، ويصبح على مبارك أحد أقطاب حزب الثورة ، الحزب الوطنى .

كانت هذه مواقفه قبل دخول الثورة مرحلة التحدى والصدام التى أعقبها السقوط . وهنا وقف الكتاب والمؤرخون حيارى أمام مواقف تبدو متضاربة من الثورة واحداثها ، وأمام تلك الانجازات الهامة التى حققها للبسطاء من شعبه .

فهل تخلى على مبارك عن الثورة فى لحظاتها الحرجة ١٩٠٠

وما هو موقفه من القوات البريطانية التى احتلت البلاد وما جرت على مصر من ويلات ١٩٠٠! لقد وقف على مبارك مع رجال الثورة عندما كانوا قوة داخلية يسعون إلى التغيير فى اطار النظام القائم، ولكن عندما انزلت إلى مرحلة الصدام مع

الخديو ومع القوى الأجنبية المتربصة ، كان له معها شأن آخر ، وأصبحت الأحداث السريعة المتلاحقة تمثل تهديداً حقيقياً على كل ما حلم بتحقيقه .

## ● ضرب الاسكندرية

لقد ظهر موقفه الجديد من الثورة ، بعد ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، وانسحاب القوات المصرية أمام قوات الاحتلال ، وبقاء الخديو فى الاسكندرية ، ورأت قيادة الثورة فى القاهرة ، أنه إما أن يكون الخديو اسيراً وإما أن يكون قد انحاز لقوات الاحتلال ، وفى الحالتين لا يجوز ترك البلاد بدون سلطة شرعية عليا ، وقام المجلس العرفى ليملاً الفراغ وعقد اجتماع فى ديوان وزارة الداخلية ، وقر رأيهم على إرسال وفد إلى الاسكندرية كى يطلبوا من الخديو التوجه إلى القاهرة حتى يصبح الحاكم الشرعى فى البلاد .

ويكمل عرابى فى مذكراته : « وانتخب على باشا مبارك وزير الأشغال سابقا - فى زمن الاستبداد - رئيسا للوفد » ، وتظهر بعض التفاصيل مما جاء فى استجواب حسين باشا الدرمللى أمام المحكمة ، الذى يذكر أنه خلال الاجتماع ، قام الشيخ عليش منادياً بخلع الخديو ، وظاهره عدد من الضباط منهم على الروبى ، ووقف البعض وبينهم على مبارك دون ذلك ، وقام محمد عبيد بالرد عليهم ، (استشهد فيما بعد وهو يقاتل

قوات الاحتلال) وقال على مبارك : « ما الذى يمنع من أن تكون أخبار الاسكندرية كذباً ؟ ، ورد عليه عبد الله النديم بحدة : وماذا بشأن شهادة ٣٠٠ ألف نسمة خرجوا من الإسكندرية ؟ ! »

وسرعان ما تحول على باشا مبارك من مؤيد إلى وسيط ومن وسيط إلى طرف ، وتخلى عن مهمته ، ويسجل عبد الله النديم هذه الواقعة بقوله : « وتوجهوا إلى كفر الدوار ، ومنه إلى حزب البواد ، فانضم على مبارك وأحمد السببوى إلى أهل المين بخفى حنين » .

وعندما يروى على باشا مبارك أحداث الثورة العرابية فى سيرته الذاتية - التى لم تتجاوز ثلاث صفحات ، ويتعرض خلالها لهذه الواقعة .. فيقول : « تشكل بالقاهرة مجلس عرقى بأمر عرابى للنظر فى المصالح ، وكثيرا ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه ، وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ، ندب اليه كثير من الأمراء والعلماء والروحانيين وأعيان البلد ، وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح ...، فعينت سفيرا إلى الاسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا إلى الاسكندرية تكلمت فى عمل طريقة لما يوجب خمود الفتنة ، أجاب جناب الخديو، وصارت المكالمة فى هذا الشأن مع الانجليز ، لكن لم ينجح ذلك لمزيد نفر العسكرية !! »



كما يذكر في ذات السيرة والتي كتبها في ظل الخديو  
توفيق وبعد فشل الثورة « إن ضباط الثورة العربية الذين  
تظاهروا لقطع مرتباتهم ، جرت منهم أمور جاوزت حد الأدب »  
ويقول في موضع آخر : « إن العربيين تدخلوا فيما ليس  
من شأنهم .. وأن الغرور ركبهم عندما سالمهم توفيق أول  
الأمر .. »

وهو هنا يعبر عن حقيقة موقفه من الثورة وأحداثها ، كما  
يلاحظ أنه عندما يستعرض في كتابه الخطط ما قام به في  
وزارة الأشغال في وزارة رياض .. يقول : « وهكذا كانت  
الأعمال قائمة على قدم السداد ، وكانت هيئة النظار سائرة  
في الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوى  
والضعيف ، والرفيع والوضيع ، فاستوجب ذلك إثارة الحقد  
في صدور أرباب الأغراض فتقولوا على هذه الهيئة وطعنوا  
فيها واختلط كثير منهم بضباط العسكرية وأوغروا صدورهم  
وألقوا في أذانهم أنهم الأحق بتعديل القوانين والتصرف في  
الحكومة حيث أنهم أهل الوطن وأصحاب القوة .. »

ويعلق في موضع آخر على وزارة البارودي التي أحتل فيها  
عرابي وزارة الجهادية ، قائلاً : « فلم تخمد نيران الفتنة ،  
وانضم إلى الطائفة العرابية " الخوارج " كثير من أهل البلاد  
وأعيانها ما بين راغب وراغب »

وفى المقابل يسجل عرابى .. « أن على مبارك كان وزيرا للأشغال فى وزارة شريف باشا التى أقامت زينة فى حديقة الأزبكية دامت ثلاث ليال ابتهاجاً بدخول الإنجليز للقاهرة ، وأن على مبارك كان يجلس مع الوزراء خلف توفيق ، وهو يعرض جنود قوات الاحتلال فى ساحة عابدين » ..

ليس هذا فحسب ، بل من يقلب مؤلفات على باشا مبارك ، يلاحظ أنه تجاهل معظم قادة الثورة فى تراجمه ، وأحياناً تجنب البلاد التى نشأوا فيها ، فلم يترجم فى خططه للزعيم أحمد عرابى، ولا لعبد الله النديم ، ولا حتى للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ومن ترجم لهم من الثوار لم يعالج موقفهم خلال الثورة ، بل ويلاحظ أيضاً أنه لم يترجم للزعيم الكبير عمر مكرم الذى له الفضل فى تنصيب محمد على والياً على مصر ، ثم تخلص منه محمد على ونفاه خارج البلاد ، فهل تجاهل هؤلاء لكى لا يغضب الأسرة العلوية ! .

### ● رحلة علم الدين

ويقدم على باشا قصة حياته فى عمل فنى هو «رحلة علم الدين» فى شكل قصصى ، يلائم التعدد والتنوع فى الموضوعات التى يتناولها ، يقارن خلال هذا العمل بين الشرق والغرب ، بين الماضى والحاضر .

ويطرح خلالها أفكاره حول النهضة وكيفية تحقيقها ، فى صور شتى ، السرد والحوار ، فى عديد من المسامرات ، يقدمها بقوله .. « اشتمل على جمل شتى من الفوائد المتفرقة فى الكثير من الكتب العربية والافرنجية ، فى العلوم الشرعية والفنون الصناعية .. ، وقد قسمته إلى مسامرات ، ينتقل فيها القارئُ تنقل المسافر ، ويجد فيها فكاهة المسامر .. »

ويصل فيها إلى الشكل أو الأسلوب الروائى كصيغة جديدة تحل محل المقامة والمقال .

ويحكى فى هذا الكتاب أهم أرائه الاجتماعية ، وهى فى صورة رحلة إلى أوروبا ، واكتشاف أهمية المدرسة الحديثة كوسيلة للحراك الاجتماعى .

ويبرر موقفه من النظام القائم الذى كان يأخذ دائما موقف الولاء ، يقول .. « إن النظر إلى السياسة كميدان لا تحمد عقباه ، أو كمكروه يجب تجنبه » رغم أنه تولى العديد من المناصب الوزارية ، وهذا يعنى ترادف كلمة السياسة عنده مع التمرد والثورة .

وبين سيرته الذاتية وقصة علم الدين الكثير من وجوه التشابه ، فترى مفهوم التعليم كما يؤكده ، وكما عاشه ، والذى يسترشد بضرورة نقل العلوم الحديثة ، وضرورة تعلم اللغات الأجنبية ، للوصول إلى ماوصل إليه الغرب من الفنون والصنائع ...

ويدعو فيه إلى السفر والترحال ، بعد أن سافر هو في بعثة إلى فرنسا ، يقول .. « ألا ترى أن البلاد الأوروبية بعد أن كانت في حالة من التوحش والخشونة ، قد إنتقلت إلى درجات الكمال ، وبلغت في الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل ، وهل لذلك سبب غير إتساع دائرة العلم والمعلومات عند أهلها مع ما أضافوه إلي ما تعلموه مما أخذوه من الأمم المجاورة لهم ، خصوصاً ما أخذوه عن أهل الشرق ...

وما من سنة تمر إلا وترى ألوفا من أهل أوروبا تسيح في الأرض، فلا يملكون بشيء إلا رسموه ، ولا يرون أثراً إلا نأملوه، وربما شرحوه وفي بلادهم نشره ، وبهذه المثابرة وصلت أوروبا إلى التقدم في العلوم واكتشاف بقاع مستجدة ، فاستحوذوا عليها ... وجلبوا إلى أرضهم جميع خيرات البقاع .....  
« رأيهم في كل أمر نافذ ، وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ، ولا شك أن الذي أوصلهم لهذه الدرجة ليس إلا العلم وكثرة السياحة، إذ لو إقتصروا على معلوماتهم الأولية ومعارف أبنائهم في الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك .. »

ويقف أمام تلك المفارقة التي جعلت الأوروبيين يعلمون من أمور بلادنا وما بها أكثر مما نعلم ..

وهكذا وقف أمام حضارة أوروبا ، وسجل ضرورة اللقاء والتفاعل ، وأعلن عن إعجابه بمظاهر التقدم الأوروبي ، وضرورة اسنلهاام جواهرها .

ويقول « فساد القمة هو الذى أسقط هذه الأمة من القمة »

وأخيرا ..

لا شك فى فضل على مبارك على مشروع النهضة فى مصر ، ويمكن وليكن موقف على باشا من الثورة قائما على إيمانه العميق بالتطور والتدرج بديلا عن الثورة ومخاطرها ، وليكن دافعه إلى ذلك حرصه الشديد على إستكمال مشروعه الذى قطع فيه تنوطا كبيرا .

ومع التسليم بتقديره الدقيق لموازين القوى ، ولن سيكون الغلبة ..

ولكن علينا أن نتوقف طويلاً ، وهو يعبر إلى الجانب الآخر، يعبر من معسكر الثوار إلى معسكر الأعداء فى إحدى اللحظات التاريخية الدقيقة ، وعندها لن يكون من الإنصاف لقاء اللوم على أولئك الذين طالبوا بالحرية وحلموا بالتقدم ، وجاهدوا فى سبيل وطنهم ، وحتى إذا إنتهى جهادهم وتضحياتهم إلى الخسران .

## فهرس

صف

- المقدمة ..... ٥
- أبو على بن سينا ..... ١٥
- المؤيد لدين الله داعى الدعاة الشيرازى ..... ٣٥
- إعتراقات الإمام الغزالى ورحلته من الشك
- إلى الإيمان ..... ٦١
- «إعدام شاعر» .. عمارة بن أبى الحسن
- اليمنى ..... ٧٩
- «الإعتبار» .. أسامة بن منقذ ..... ٩٧
- إحراق كاتب .. لسان الدين الخطيب ..... ٢٣
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا .. ٤٣
- على باشا مبارك ..... ٩٩

روايات الشلال تقدم

# إعسار الروح

بقلم

د. محمد المنسى قنديل

تصدر ١٥ مارس سنة ١٩٩٢

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

# الهلال

المجلة الثقافية الأولى  
في مصر والعالم العربي

مائة عام  
في خدمة الثقافة والفكر والفن

تصدر أول كل شهر  
رئيس التحرير  
مصطفى نبيل







# سانتو

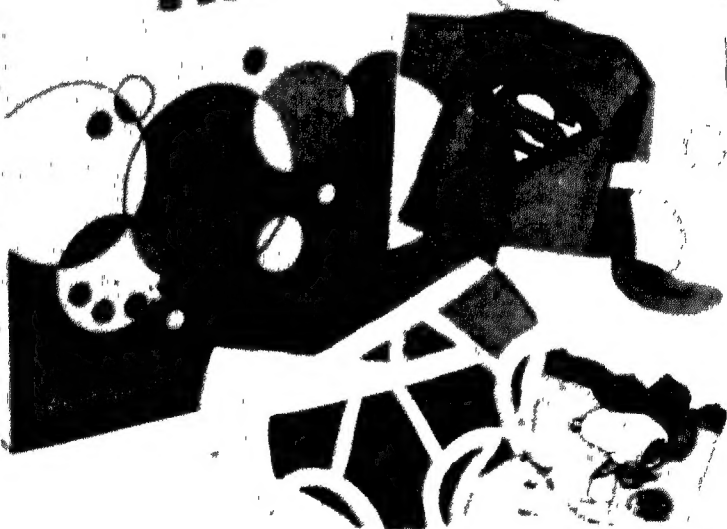
ساحوق معطر لفصل

ويطهر الجميع

أنواع الفسيل

## سانتو

...



انتاج

شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

## هذا الكتاب

يناول هذا الكتاب قصة ثمان سبر عربييه ، كتبها ثمان شخصيات بينهم الكاتب والسياسى والفيلسوف والمؤرخ والمنصوف ، ونمر هذه السير زمنيا من القرن الرابع الهجرى حتى القرن الرابع عشر ، وتغطى جغرافيا رقعة عالم الإسلام الممتد من بخارى إلى الأندلس .

فالسيرة مزج دقيق بين ما هو ذاتى وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصى والموضوعى ، وهى تقدم صورة حية نابضة بالحياة لأحداث وأفكار وقعت بالفعل .

وهى فن أدبى رفيع ، أمد الدراسات التاريخية والاجتماعية بمادة لا تنضب من الصور الحية ، تكشف الظلال والأضواء والألوان فى الوقائع التى تتناولها .

وكل من يكتنب تجربته بصدق يقدم عملا فنيا خالصا ممزوجا بتسحينه من متشاعر وأحاسيس صاحبها ، مما يجعلها شيقة وجذابة وتصبح ضربا من القصص الحى الجميل

وقراءة سير كل من ابن سينا ، والمؤيد لدين الله ، والإمام الغزالى ، وأسامة بن منقذ ، وعمارة اليمنى ولسان الدين الخطيب وابن خلدون ، وأخيرا على باشا مبارك ، قراءة هذه السير متتابعة تظهر ما فى تاريخ الفكر العربى من كنوز مما يعزز الثقة بما بلغناه ، ويحىى الأمل فيما يمكن أن نبغاه ، ويلمح إزدهار وندهور الحضارة برويها شاهد عيان

9 الغزالى ، وأسامة بن منقذ ، وعمارة اليمنى ولسان الدين